قَالَتِ المَنَابِرُ

(المجموعةُ السادسة)

❊ ❊ ❊

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ-٢٠٢١م

قَالَتِ المَنَابِرُ

مجموعةٌ مِن خُطَب الجُمُعة أُلقِيَت في جامع

الأَميرِ الرَّاحل صاحبِ السُّمو الشَّيخ عِيسى بنِ سَلْمانَ آل خَلِيفَة

رحِمَه اللهُ تعالى

(المجموعةُ السادسة)

أَلقاهَا الرَّاجِي عَفْوَ رَبِّهِ

راشِدُ بنُ مُحمَّدِ بْنِ فَطِيسٍ الهاجِرِيُّ

حفِظَهُ اللهُ وغَفَرَ لِوالدَيْهِ

خَطِيبُ جامِعِ عِيسى بْنِ سَلمانَ آل خَلِيفَة

الرِّفَاعُ الغَرْبِيُّ - مَمْلَكَةُ البَحْرَيْنِ

مقدمة المجموعة السادسة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبَةُ للمُتَّقِين، وأَشهدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ، وحدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ وسلَّم وباركَ علَيْهِ، وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ ومَن تَبِعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

وبعدُ؛ فللَّهِ الحمدُ والفضلُ والمِنَّةُ علَى عونِهِ وتأييدِهِ وتيسيرِهِ إخراجَ المجموعةِ السَّادسة مِن كتابي **(قالَتِ المنابِرُ)**، والتِي تضُمُّ ثلاثينَ خُطبةَ جُمُعةٍ، خطبتُها في جامِعِ الأميرِ الرَّاحِلِ صاحبِ السُّمُوِّ الشَّيْخِ عِيسَى بنِ سَلمانَ آل خَلِيفَة -رحِمَهُ اللهُ تَعالَى-، سائلًا المولَى عَزَّوَجَلَّ أنْ يكتُبَ لِي ولِوالدَيَّ ولزَوْجتِي ولأَوْلادِي ولإِخوانِي وأخواتِي أجرَها وثوابَها، وأن يُثقِّلَ بها موازِينَ حسناتِنا يومَ نَلقاهُ، وأنْ يَجعلَها لَنا صَدقةً جاريةً نَنتفعُ بِها فِي دُنيانَا وأُخرانَا، وأنْ يَنفعَ بِها كُلَّ مَن أَسهَمَ وسَاعدَ في إخراجِها وطِباعتِها، وكُلُّ مَن قَرأَها واطَّلع علَيْها... اللَّهُمَّ آمِين.

مُلاحظة: لِلاطِّلاع علَى فِكرة هذِه المجموعةِ أرجُو مِنَ القارِئِ الكَرِيمِ قِراءةَ مُقدِّمةِ المجموعةِ الأُولى. والحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ.

وكتبهُ: الراجي عفوَ ربه

راشدُ بنُ محمَّد بن فطيس الهاجري

حفظه الله وغفر لوالديه

الرفاع الغربي - مملكة البحرين ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المجموعة الأولى

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعدُ:**

فقد بدأتُ الخطابةَ -بصفةٍ رسميةٍ- قبلَ عشرينَ سنةً تقريبًا، وذلكَ حينَ التحقْتُ بشعبةِ الإرشادِ والثقافةِ بالحرسِ الوطنيِّ، وكانَ منْ جملةِ مهامِّي الوظيفيةِ إلقاءُ خطبةِ الجمعةِ في جامعِ معسكرِ الحرسِ الوطنِّي، إلى أنْ تشرفْتُ بصدورِ التَّوجيهِ السَّامي الكريمِ لصاحبِ الجلالةِ الملكِ حمد بن عيسى آل خليفة ملكِ مملكةِ البحرينِ -حفظَهُ اللهُ ورعاهُ- بتعييني خطيبًا رسميًّا لجامعِ المغفورِ لهُ -بإذنِ الله تعالى- صاحب السموّ الأمير الراحلِ الشيخِ عيسى بن سلمان آل خليفة طيبَ اللهُ ثراهُ، وذلكَ في عام ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

وفي خلالِ هذه الفترةِ التي قضيتُها خطيبًا أدركْتُ تمامًا أهميَّةَ خطبةِ الجمعةِ وخطورةَ التَّهاون فيها، فلقدْ كنْتُ أقابلُ في كلِّ جمعةٍ عقولًا راجحةً جديرةً بالاحترامِ والاهتمامِ، فكنتُ أهتمُّ كثيرًا بموضوعِ الخطبةِ، ولا أبالغُ إذا قُلْتُ: إنِّي أفكِّرُ في موضوعِ الخطبة التاليةِ منذُ بدايةِ الأسبوعِ، ولقد زادني تعظيمًا لشأن الخطبةِ أنَّ هذا المقامَ هو مقامِ النبيين والمرسلين، وهو توقيعٌ عن ربِّ العالمين، ووسيلةٌ عظمى لنشرِ الحقِّ وإذاعةِ الدِّين.

هــذا المقــامُ مقــامُ الرُّســلِ قاطبــةً وفوقــهُ حــاربوا كيــدَ الشَّــياطينِ
وموطنُ النُّصحِ والإرشادِ من زمـنٍ ومنــبرُ الحــقِّ والتَّعلــيمِ للــدينِ

والحقُّ أنَّني استفدْتُ كثيرًا منَ خطبِ العلماءِ ودروسِهمْ وكتبِ الدُّعاةِ ومقالاتِهم، فكنتُ ألخِّصُ بعضَ الكتبِ والمقالاتِ والخطبِ وأُعيدُ صياغَتها؛ ليتناسبَ المقالُ معَ المقامِ، ولا أدَّعي أنِّي جئتُ في هذهِ الخطِب بالجديدِ أبدًا، وإنَّما هي نُقولٌ جمعتُها وألَّفْتُ بينها وقدمتُها على هيئةِ خطبةٍ.

ولَّما كنتُ ألقي هذهِ الخطبَ ارتجالًا من ذاكرتي دونَ كتابتِها أشارَ على بعضُ الإخوةِ بتسجيلِها، ثمَّ تفريغِها في كتابٍ ليستفادَ منها.

زكــاةُ العلــمِ بــذلٌ ثــمَّ نشــرُ ومــا كــالعلمِ في أخــراكَ ذُخــرُ
تُفيــدُ بــهِ الخلائــقَ كــلَّ حــينٍ ويبقــى منــهُ بعــدَ المــوتِ أجْــرُ

ولقد كنت مترددًا كثيرًا في تلبيةِ طلبِهم إلى أنْ شرحَ الله صدري لذلكَ، فقمْتُ بتفريغِ المجموعةِ الأولى من هذه الخطبِ -وعددُها تسع وأربعونَ خطبةً- في هذه المؤلفِ، وأخَّرتُ البقيَّةَ للمجموعاتِ القادمةِ بإذن الله تعالى.

ولا يَسَعُني في هذا المقامِ وبعد شكري لله على ما منَّ بهِ عليّ من فضلٍ إخراجِ هذهِ المجموعةِ منَ الخُطبِ إلا أن أشكُرَ جميعَ من ساعدني وساهمَ في إخراجِ هذهِ الخطبِ سائلًا الله لي ولهمُ الأجر والثَّواب السَّداد والصَّواب.

تــولاني الأحبــةُ والصِّــحابُ أعــانوني فصــاحبَني الصَّــوابُ
وخيرُ الصحبِ من يؤتيكَ نصحًا يفيــدُك حــينَ يغشــاك الــترابُ

وفي الختامِ أرجو مِمَّنْ سيقرأُ هذهِ الخطبَ أن يعذرَني إن وجدَ خطأً وخللًا؛ فقدْ ألقيتُ هذهِ الخطبَ -كما تقدَّم- حفظًا من ذاكرَتي.

وإنْ تجـدْ عيبًـا فَسُـدَّ الخلـلا جـلَّ مَـنْ لا عيْـبَ فيـه وعَـلا

وعليه فأرجو ممنْ رأى شيئًا أنْ يبذلَ النَّصيحةَ ويوافيَني بما وجدَ؛ لأتداركَ ذلك في الطبعاتِ القادمة إن شاءَ اللهُ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتبه

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي - مملكة البحرين

جمادى الأولى ١٤٣٨هـ/ فبراير ٢٠١٧م

للمراسلة: alhajrii.٦٤@gmail.com

(١)

احْذَروا الفِتنَ

بينَ فَترةٍ وأخرَى تَخرجُ في مُجتمعاتِنا أصواتُ النشازِ، تَدعو إلى التظاهرِ وإلى إحداثِ الفَوضَى هُنا أو هُناكَ، ويُؤججُ نارَها كثيرٌ مِنَ الحاقِدين على الأُمةِ وعلى الإسلامِ.

وآخِرُ هذهِ الدعواتِ الآثِمةِ هذه الدَّعوةُ الَّتي انطَلَقَت قبلَ أيَّامٍ وروَّجَ لها الحاقِدونَ وأجَّجوا نارَها بإحداثِ الفوضَى في بلادِ الحَرَمينِ الشَّريفينِ، دعوةٌ للتظاهرِ -اليومَ الجمعةَ- يَدعو إلَيْها هؤلاءِ الحاقِدون على أُمةِ الإسلامِ عامَّةً، وعلى بلادِ الحرَمَيْن الشريفينِ خاصَّةً، دعوةٌ للتظاهُرِ لبوسُها الإصلاحُ، والنماءُ، ووالله إنَّها لَمِنْ أعظمِ الفتنِ، كيفَ لا تَكونُ فِتنةً وهيَ تستهدِفُ بلادَ الحرَمينِ الشَّريفينِ، ومَهبطَ الوَحْيِ، ومَبعثَ الرسالةِ، وقِبلةَ المسلِمينَ، ومَأرزَ الإيمانِ.

إنَّها مِن أعظمِ الفِتنِ الَّتي حذَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى منها، فقالَ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

هذهِ الفِتنةُ الَّتي أُمِرْنا أَنْ نَكونَ أبعدَ ما نَكونُ عَنها، ففي صَحيح البخاريِّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ

مِنَ المَاشِي، والمَاشي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[١].

وحالُ المؤمنِ معَ الفتنِ أَنْ يَكونَ بَعيدًا عنها بقدرِ ما أُوتِيَ مِن قوةٍ، وبقدرِ ما أُوتِيَ مِن ذكاءٍ وحَصافةٍ، يبعدُ نفسَه عَن نارِ الفِتنةِ، فالقاعدُ فيها -أي: المقلُّ- خيرٌ مِنَ القائمِ، والقائمُ فيها خيرٌ مِنَ الماشِي، والماشِي فيها خيرٌ منَ الساعِي، مَن تَشرَّفَ لها -أي: مَن تَطلَّعَ للمُشاركةِ فيها بفِعلِه أو قولِه أو قلمِه أو مُشاركتِه- تَستشرِفه -أي: تُهلِكه- وأَعطانا رسولُ اللهِ ﷺ التوجيهَ فقالَ: «فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَلَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ».

فلْيَنأَ العبدُ عنِ الفِتنِ كلِّ الفِتنِ؛ **والسببُ**: أنَّ السعادةَ كلَّ السعادةِ في اجتِنابِ الفِتنِ، والتَّأمُّلِ فِي سِيَرِ الدُّولِ الَّتي تَنمو وتتطوَّرُ؛ فإنَّما كانَت كَذلِكَ لأنَّها خلَتْ مِنَ الفِتنِ، ومِن الهرجِ والقتلِ، ومُلِئَت بالطُّمأنينةِ والاستقرارِ، وانظُرْ إلى هذه الدولِ الَّتي نَعقَ فيها الناعِقون وأَحدَثوا فيها الفتنَ كيفَ هيَ في تخلُّفٍ وانحِطاطٍ وتَدنٍّ؟!

لذا قالَ النبيُّ ﷺ كما هوَ في حديثِ المقدادِ بنِ الأَسودِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ أَبي داودَ في سُننِهِ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ»[٢] يُكرِّرُها ثلاثًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، رقم (٧٠٨١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة، رقم (٤٢٦٣).

سعادةً تَحظَى بها المُجتمَعاتُ ويَحظَى بها الأفرادُ، فكلَّما نَأَتِ المجتمعاتُ بأفرادِها ومُكوِّناتِها عَنِ الفِتنِ سعِدَت، هذا وحيٌ أُنزِلَ على النبيِّ ﷺ.

ونحنُ نُدافعُ الفِتنَ ونَرفضُها -وهذه الأَحداثَ أيضًا-؛ لأنَّها إذا وقَعَت عمَّتِ البَلوى والفوضَى.

فقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ والحديثُ في صَحيح مُسلمٍ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي القَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ ، وَلَا يَدْرِي المَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ**»[(١)].

وذلِكَ لأنَّ الأمرَ فوضَى، فالقاتلُ يقولُ: أنا قَتلتُ ولا أَدري لماذا قَتَلتُ، والمقتولُ يَقولُ: أنا لا أَدري لماذا قُتِلتُ؛ لأنَّها فِتنةٌ عظيمةٌ، وهذا -معَ كلِّ أسفٍ- هوَ الَّذي يحدثُ اليومَ في بِلادِ المُسلِمين معَ انتِشارِ القتلِ والفوضَى والتخريبِ.

ولكلِّ شيءٍ حقيقةٌ، وحقيقةُ الفِتنِ تَكمنُ في هذهِ الصورِ الأربَعِ:

الصورةُ الأُولى: أنَّ الفِتنةَ في بِدايتِها تَتزينُ وتلبسُ لبُوسَ الحسناءِ، ولكِنْ في آخرِها تَشينُ وتَقبُحُ.

فتَأتي في بِدايتِها تُزخرفُ بدعوَى النماءِ، والإصلاحِ، وتقاسُمِ الثرواتِ، تَأتي بهذِه الدعاوَى الَّتي تُزينُ للدَّهْماءِ مِنَ الناسِ كالمرأةِ الشابةِ الحسناءِ، لكِنَّها إذا أَدبَرَت ليسَ ثَمَّ إلَّا الخرابُ والفوضَى، وكلُّ هذهِ الوعودِ لا تجدُ شيئًا مِنها على أرضِ الواقعِ، والواقعُ يشهدُ بذلكَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذا قالَ الأوَّلُ:

الحَــرْبُ أَوَّلُ مَــا تَكُــونُ فَتِيَّــةً ... تَسْــعَى بِزِينَتِهَــا لِكُــلِّ جَهُــولِ

حَتَّى إِذَا اشْـتَعَلَتْ وَشَـبَّ ضِرَامُهَـا ... وَلَّــتْ عَجُــوزًا غَــيْرَ ذَاتِ حَلِيــلِ

شَــمْطَاءَ، يُنْكَــرُ لَوْنُهَــا وَتَغَــيَّرَتْ ... مَكْــرُوهَةً لِلشَّــمِّ وَالتَّقْبِيــلِ[1]

وقَدْ قالَ أَبو مُوسَى الأشعريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهُو الَّذي نهَلَ مِن مِشكاةِ النبوَّةِ-: «إنَّ الفِتنةَ إذا أقبَلَت شبَّهَت، وإذا أَدبَرَت بيَّنَت»[2].

لكِنِ الذي ينفعُ هُو أنَّها بعدَ أَنْ تُدبِرَ : تَتَبَيَّنُ لكَ الأمُورُ، لأنَّه إذا وقَعَتِ الفِتنةُ تقَعُ الشُّبهةُ، وانظُرْ إلى حالِ الأُمةِ اليومَ كيفَ قد حارَتْ عُقولُهم وهُم يَتأرجَحون هُنا وهُناكَ، فتَضيعُ الحقائقُ وتختلطُ الأمورُ.

الصورةُ الثانيةُ: أنَّ عُقولَ الرجالِ تَعرجُ أثناءَ الفِتنِ، فتَرَى الناسَ وتَرَى تَصرُّفاتِهم كأنَّهم بلا عقولٍ، وهذا الَّذي أخبرَ بِه النبيُّ ﷺ في كتابِ الفِتنِ لنُعيمِ بن حمَّادٍ مِن حديثِ حُذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيثُ قالَ ﷺ: «**تَكُونُ فِتْنَةً تَعْرُجُ فِيهَا عُقُولُ الرِّجَالِ، حَتَّى لَا تَكَادَ تَرَى رَجُلًا عَاقِلًا**»[3].

وجاءَ عندَ الإمامِ أحمدَ في مُسنَده مِن حديثِ أَبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا تحدَّثَ النبيُّ ﷺ عمَّا سيَؤولُ إليهِ حالُ المسلِمينَ، قالَ: «**يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»،

---

(١) الأبيات لامرئ القيس، في وصف الحرب، ديوانه (ص: ١٤٩)، وانظر: صحيح البخاري (٩/ ٥٤): كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر.

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٤٨٣- ٤٨٤)، والبداية والنهاية (١٠/ ٤٤٦).

(٣) الفتن لنعيم بن حماد رقم (١٠٧).

أيْ: يُوَجَّهُ سِلَاحُ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ؛ فقالَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «ومعَنا عقولُنا يومئذٍ!» قالَ ﷺ: «إِنَّهُ لَتُنْزَعُ عُقُولُ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُخَلَّفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ، يَحْسَبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ»[(١)].

الصورةُ الثالِثةُ: إذا حصَلَتِ الفتنُ وعمَّتِ الفَوضَى، سادَ المشهدَ السُّفهاءُ والدَّهماءُ.

قالَ ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في توصيفٍ لهذا الواقعِ: «والفِتنةُ إذا وقَعَت، عجَزَ العُقلاءُ عَن دَفعِ السُّفهاءِ، وعجَزَ الأكابرُ عَن إطفاءِ نارِها وكفِّ أهلِها»[(٢)].

وقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ في مَوضعٍ آخرَ: «وقلَّ مَن خرجَ على إمامٍ ذِي سُلطانٍ إلَّا ما تولَّدَ على فِعلِه منَ الشرِّ أعظمُ مِمَّا تولَّدَ منَ الخيرِ»[(٣)].

وقَدْ ذكَرْت هذا مِن أولِ بِداياتِ ما يُسمَّى بالخريفِ العرَبيِّ مُحذِّرًا مِن هذهِ الفِتنِ الَّتي تَنتشرُ في عالَمِنا الإسلاميِّ: أَنَّ كلَّ خروجٍ على إمامٍ ذِي سُلطانٍ لا يَتولَّدُ على فعلِ مَن خرجَ إلَّا الشرُّ العَظيمُ، وها نحنُ نَرى الواقعَ!.

والنبيُّ ﷺ حينَما أَرشدَنا بذلكَ إنَّما أرادَ لَنا النجاةَ، ثُم جاءَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلخَّصَ لَنا هذا كلَّه، قالَ: «أَنْ تَكونَ تابعًا في الخيرِ خيرٌ مِن أَنْ تَكونَ رأسًا في الشرِّ»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، رقم (٣٩٥٩).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ٣٤٣).

(٣) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٢٧- ٥٢٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٨٣٤٣)، والبيهقي في الشعب رقم (٩٨٨٦).

الصورةُ الرابعةُ: أنَّ الفِتنَ تُدفعُ بأمورٍ:

الأمرُ الأوَّل: إماتةُ الإشاعةِ في مهدِها، فكلُّ إشاعةٍ تصلُ إليكَ أَمِتْها في مهدِها، ولا تَقُمْ على نَشرِها، وهيَ وَصيةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبادِه أثناءَ الفِتنِ وفي الأزَماتِ، فقَدْ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٣]، وقالَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في موضعٍ آخرَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

الأمرُ الثاني: الالتفافُ حولَ ولاةِ الأمرِ والعلماءِ الرَّبانيِّينَ الصادِقينَ في كلِّ قُطرٍ أثناءَ الفِتنِ.

الأمرُ الثالثُ: هوَ سلاحٌ عظيمٌ، والآخِذون بهِ قليلٌ، وهوَ الدُّعاءُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لصحابتِه الكرامِ يُردِّدُها ثلاثًا: «**تَعَوَّذُوا باللهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»(١)، وقالَ أبُو هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تكونُ فتنةٌ لا يُنجِي مِنها إلَّا دعاءٌ كدُعاءِ الغريقِ»(٢). أي: إلحاحٌ.

لذا عَلى العبدِ المؤمِنِ أَنْ يكونَ عاقلًا متنبهًا لمثلِ هَذه الدّعواتِ الآثمةِ، فيُميتَها في مهدِها ولا يُشيعَها فيكونَ مشاركًا فيها.

⁂

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٦٧)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٨٩٠٤).

(٢)
مَحبةُ اللهِ هيَ الحبُّ الكبيرُ

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

مَنزلةٌ مِن أعظمِ المنازِلِ في الدِّينِ وهيَ الحبُّ، هذا الحبُّ الَّذي يَصدرُ منَ العبدِ إلى رَبِّه، ويصدرُ مِنَ الربِّ إلى عبدِه.

حبٌّ قالَ عنهُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه «مَدارِج السَّالِكين»: «ومنزلةُ المحبَّةِ هيَ المنزِلةُ الَّتي فيها تَنافسَ المُتنافِسون، وإليها شخَصَ العامِلون، وإلى عِلْمِها شمَّرَ السَّابِقون، وعلَيْها تفانَى المُحبُّون، وبرَوحِ نَسيمِها تروَّحُ العابِدون، فهيَ قوتُ القُلوبِ، وغذاءُ الأرواحِ، وقُرةُ العيونِ، وهيَ الحياةُ الَّتي مِن حُرِمَها فهوَ مِن جُملةِ الأمواتِ، والنورُ الَّذي مَن فقَدَه فهوَ في بحارِ الظُّلماتِ، والشفاءُ الَّذي مَن عُدِمَه حَلَّت بقَلبِه جميعُ الأسقامِ، واللَّذةُ الَّتي مَن لم يَظفَرْ بها فعيشُه كلُّه همومٌ وأوهامٌ»[(١)].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٨).

إنَّها مَنزلةُ المحبةِ الَّتي دَعا بها رسولُ اللهِ ﷺ، كما في حديثِ مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ التِّرمِذيِّ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَدعو ويقولُ: «وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ»(١).

إنَّها القلوبُ النَّقيةُ الَّتي عرَفَتِ الخالقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على حَقيقتِه فأَحبَّتْه، فأثمرَ هذا الحُبُّ محبةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعبدِه.

لذا قيلَ: «ليسَ العِبرةُ أن تُحِبَّ، ولكِنِ العبرةُ أن تُحَبَّ»، فادِّعاءُ المحبةِ سهلٌ؛ لذا أنزلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آيةً قالَ عنها الفُقهاءُ: آيةُ الامتحانِ؛ وهِي قولُهُ تَعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

والسؤالُ الَّذي يَتبادرُ الآنَ: كيفَ أعرفُ أنَّ اللهَ يُحِبُّني؟ وهل لذلِكَ عَلاماتٌ؟

الجوابُ: نعَمْ، بإمكانِك أن تَبحثَ عَن هذهِ العلاماتِ في نَفسِك، ولا تبحثَ عَنها في غيرِك، ولا تَتساءَلَ هل رَبِّي يُحِبُّ فلانًا؟ بلِ اشتغِلْ بنَفسِك وقُلْ: هَلْ فيَّ مِن العلاماتِ ما يدلُّ على محبةِ اللهِ لي؟

وأَذكُرُ مِن هذهِ العلاماتِ أربعًا:

العلامةُ الأُولى: إذا أحبَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عبدًا حماهُ الدُّنيا، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ قَتادةَ بنِ النُّعمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ التِّرمِذيِّ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ المَاءَ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، رقم (٣٢٣٥).
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الطب، باب ما جاء في الحمية، رقم (٢٠٣٦).

قد يكونُ أحدُ أبنائِك -أو أحدُ مَن تُحبُّ- مَريضًا، وطبيبُه يقولُ: لا يُسقَى الماءَ أربعَ أو خمسَ ساعاتٍ، وهوَ يقولُ لكَ: يا والِدي أريدُ شُربَ القليلِ منَ الماءِ. فتقولُ له: اصبِرْ، لَمصلحتِك لا تَشرَبِ الماءَ. فتَحميهِ الماءَ، وفي الماءِ مادةُ الحياةِ، ولكِنْ تَحميهِ لأجلِه، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أحبَّ عبدًا حماهُ الدُّنْيا، بأَنْ يَجعلَها في يدِهِ ولا يَجعلَها في قَلبِه، وحماهُ مسالكَ الحرامِ فيها، وحماهُ مِنَ الوقوعِ في إغرائِها وإغوائِها وزُخرفِها وزِينتِها، وحماهُ أن يَتخبَّطَ في سُبلِ الهلاكِ فيها.

نعَمْ، قد تَتوافَرُ الدُّنيا في يدِهِ، ويَفيضُ المالُ في يدِه، ويُشارُ إليه بالغِنَى، ولكِنَّها لا تصلُ إلى قلبِه فتَطمسَ نورَ المحبةِ في قلبِه.

العلامةُ الثانيةُ: وقوعُ البلاءِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ ابنِ ماجَهْ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»[(١)].

في الأولى حَماهُ الدُّنْيا؛ لئلَّا يقعَ في الذنبِ، ونفسُه تتوقُ إلى الدُّنيا، وتَبكِي على فواتِها، كما كانَ يقولُ أميرُ المؤمنينَ الخليفةُ الراشدُ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُنسبُ له هذهِ الأبياتِ- يقولُ:

النَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ المَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ المَوْتِ بَانِيهَا

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَـإِنْ بَنَاهَـا بِخَـيْرٍ طَـابَ مَسْـكَنُهُ وَإِنْ بَنَاهـا بِشَـرٍّ خَـابَ بَانِيهَـا[1]

الشاهدُ: «النفسُ تَبكِي علَى الدُّنْيا»، وانظُرْ إلى حالِنا نحنُ إذا فاتَنا شيءٌ يسيرٌ منَ الدُّنيا كيفَ نَتألَّمُ ونَجزعُ؟! ونحنُ على علمٍ أنَّ السلامةَ فيها تركُ ما فيها، ففي الأُولى حماهُ الدُّنيا؛ لئلَّا يقعَ في الذنبِ، وفي العلامةِ الثانيةِ إذا وقعَ في الذنبِ ابتَلاهُ ليُطهرَه؛ لأنَّه يُحبُّه.

العَلامةُ الثالِثةُ: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُدخلُ عليهِ الرفقَ في معاملتِه، وفي بيتِه، ومعَ أهلِه، ومعَ زملائِه، فإذا رأيتَ أنَّ الرفقَ يتخلَّلُ في حياتِك كلِّها فلا عنفَ فيها ولا تهوُّرَ؛ فاعلَمْ أنَّ هذهِ عَلامةٌ على محبَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لكَ، دليلُ ذلكَ ما جاءَ في حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ ابنِ أبي الدُّنْيا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ**»[2].

والرفقُ طائرٌ يطيرُ في هذا البيتِ: رفقُ الوالِدِ معَ الولدِ، والولَدِ معَ الوالِدِ، هكَذا يَشعُّ نورُه في هَذا البيتِ، ورفقُ الزوجِ بزَوجتِه، وبخادمِه، وبعاملِه، ورفقُه في الشارعِ، فإذا أحبَّ اللهُ أهلَ بيتٍ أدخلَ علَيْهمُ الرفقَ.

فإذا قالَ العبدُ: كيفَ أصلُ إلى هذهِ الدرجةِ الَّتي يُحبُّني اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها، فتَظهرُ عليَّ هذهِ العَلاماتُ؟

---

(١) الأبيات نسبها ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (٩/ ٤٠٧١) لسابق بن عبد الله البربري، ونسبها بهاء الدين العاملي في الكشكول (٢/ ٧٧) لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر: ديوان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص: ٢١٠).

(٢) انظر: كنز العمال (٣/ ٥٢، رقم ٥٤٤٩)، وأخرجه أحمد (٦/ ٧١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بنحوه.

فالجوابُ: لا شكَّ أنَّ هُناكَ سُبلًا ووسائلَ تُوصلُنا إلى محبةِ اللهِ، ولا يُمكنُ أن نَتوصَّلَ إلى هذهِ السبلِ والوسائلِ بعُقولِنا واجتِهادِنا، ولكِنْ لا يَدُلُّنا على ذلكَ إلَّا الوحيُ، فنطقَ النبيُّ ﷺ بهذهِ الوسائلِ، أَذكرُ مِن ذلكَ وَسيلتَين:

الوَسيلةُ الأُولى -وهيَ عَظيمةٌ، ولكِنَّها يَسيرةٌ وفِي الإمكانِ وفي أيدينا-: يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القُدسيِّ: «**وَمَا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فكثرةُ النوافلِ نَتيجتُها مَحبةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لكَ، ونتيجةُ هذا الحُبِّ قالَ: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[(١)].

فقولُه: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**» أي: لا يَكتَفي بالفرائضِ، بلْ هُو يُصلِّي الفرائضَ ويَأتي بسُننِها القَبليةِ والبَعديةِ، ويصومُ ويَتنفَّلُ، ويُزكِّي ويَتصدَّقُ، يُكثِرُ منَ النوافلِ ليَنالَ هذهِ المحبةَ، فهَذا أحدُ السُّبلِ.

الوَسيلةُ الثانِيةُ: وسببُها ذَلِكَ الحادثُ الَّذي حدثَ في زمنِ النبيِّ ﷺ، وسبقَ أَنْ ذكَرْنا أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُربِّي بالحدثِ، فقَدْ تَحدثُ أحداثٌ فيُربِّي ﷺ مِن خلالِها، فكانَ ﷺ يَتوضَّأُ في يومٍ، فقامَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَتمسَّحون بوَضوئِه، وهَذا مشروعٌ، فقالَ لَهم: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا؟**»، قالوا: حُبُّ اللهِ ورَسولِه؟ فلَمْ يُنكِرْ علَيْهم ﷺ، ولكِنَّه أرشَدَهم إلى ما هوَ أفضلُ وأبركُ، أرشدَهم إلى ما فيه فائدةٌ مُتعدِّيةٌ للآخَرينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقالَ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ يُحِبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَلْيَصْدُقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ، وَلْيُؤَدِّ أَمَانَتَهُ إِذَا ائْتُمِنَ، وَلْيُحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَهُ»[١].

فالتبرُّكُ بالماءِ سهلٌ، لكِنْ هذا الأمرُ قاصرٌ على حياتِه ﷺ، أمَّا الطريقُ الآخرُ فنفعُه مُتعدٍّ، وتَصلحُ بِهِ المجتمعاتُ، وهيَ أركانٌ أساسيةٌ في أركانِ المجتمعاتِ، فليَصدُقْ في حديثِه إذا حدَّثَ، وليُؤدِّ أمانتَه إذا ائتُمنَ، وليُحسِنْ جوارَ مَن جاوَرَه، فإذا فعلَ ذلكَ أحبَّه اللهُ ورسولُه.

وما أَرَدْت بذلكَ إلَّا أن تَزكوَ نفسِي ونفوسُكم، وترتفعَ إلى ما يُريدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأن تَضعَ قدمَها على صراطِه المستقيمِ، فمَنْ أخَذَ بِها فقَدْ أخذَ بحظٍّ وافرٍ، وسلَكَ سبيلَ الرشادِ، ومَن تَنكَّبَ عَنها فلا يضُرُّ إلَّا نَفسَه.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق رقم (٢٦٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٤/١٨٣٨)، والبيهقي في الشعب رقم (١٤٤٠)، من حديث عبد الرحمن بن أبي قراد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣)

أعمالٌ يُحبُّها اللهُ تَعالى

العملُ الصالحُ هوَ سفينةُ النَّجاةِ في بِحارِ الظُّلماتِ، وأَمواجِها المتلاطِمةِ بالفِتنِ والشهواتِ، وهوَ الحبلُ المَتينُ، والسبيلُ المستقيمُ الموصِلُ إلى مَرضاةِ ربِّ العالَمينَ، وهوَ الصاحبُ المؤنِسُ في دارِ الوَحشةِ عندَ فراقِ الأحِبَّةِ، فبالعمَلِ الصالحِ تَتنزَّلُ البركاتُ، وتُنالُ الرحماتُ، وتَثقلُ الموازينُ يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالَمينَ.

قالَ اللهُ تَعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وقَدْ تَحدَّثْنا فيما مضَى عَن مَنزلةِ المحبَّةِ؛ مَحبةِ العبدِ لرَبِّه، ومحبةِ الربِّ لعبدِه.

أمَّا الآنَ فحديثُنا عَن أعمالٍ يحبُّها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى والعبدُ الراشدُ العاقلُ الفطنُ هوَ الَّذي يَنظرُ في محبوباتِ مَن يُحبُّ فيَتقرَّبُ إليهِ بها.

فإذا كنتَ تُحبُّ اللهَ، وتَرغبُ في أن تنالَ مَحبَّتَه فتقرَّبْ إليهِ فيما يُحبُّ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحبُّ الأعمالَ الصالحةَ الَّتي نفعُها مُتعدٍّ، فنافِلةُ الصلاةِ مِمَّا يحبُّ رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولكِنْ نَفعُها قاصرٌ عليكَ، والصيامُ مِمَّا يُحبُّه اللهُ، ولكِنْ نفعُه قاصرٌ عليكَ أيُّها الصائمُ، والحجُّ والعُمرةُ مِمَّا يحبُّ اللهُ، ولكِنْ نَفعُها قاصرٌ عليكَ، ولكِنَّ اللهَ يحبُّ أكثَرَ مِن ذلكَ الأعمالَ الَّتي نَفعُها متعدٍّ؛ لِذا فالعاقلُ هوَ الَّذي يبحثُ عَن محبوباتِ حَبيبِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهناكَ ثلاثُ محبوباتٍ يُحبُّها الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

* **أَمَّا الأُولى فإنَّ اللهَ يحبُّ حُسنَ الخُلقِ**، فأخلاقُ الرجلِ معَ غيرِه؛ معَ والدَيْه، أو معَ أولادِه، أو معَ الناسِ، فهَذِه مِن أعظمِ ما يُحبُّه اللهُ تَعالى، والعاقلُ هوَ الَّذي يَتقرَّبُ بهَذا العملِ الصالحِ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعِديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»[(١)]؛ أي: الأخلاقَ الراقِيةَ يُحبُّها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فتقرَّبْ إليهِ بهذا المحبوبِ.

لذا ارتَبَطت هذه العبادةُ بكَمالِ الإيمانِ أو نُقصانِه، فقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ في حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ أَبي داوُدَ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[(٢)].

وكم نحنُ في حاجةٍ اليومَ إلى إنعاشِ النَّفْسِ نَحْوَ هذا العملِ الصالحِ - الخُلقِ الحُسنِ- وهوَ مُرتبطٌ بالإيمانِ.

وما الفائِدةُ أن يُصلِّيَ الإنسانُ ويَتقربَ إليهِ بنوافلِ الصلاةِ، وخلقُه سيِّئٌ معَ مَن هوَ حولَه؟! وقد ذكَرْنا مِرارًا حديثَ تلكَ المرأةِ الَّتي تَصومُ النهارَ وتَقومُ الليلَ وتَتصدَّقُ وتَفعلُ، وتُؤذِي جيرانَها بلسانِها، فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ «**لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ فِي النَّارِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم (٦/ ١٨١، رقم ٥٩٢٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٨)، والبيهقي في الشعب رقم (٧٦٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٢)، والترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (١١٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو يُبيِّنُ أنَّ صاحِبَ الخُلقِ الحسَنِ يُدركُ درَجاتِ الصائِمينَ القائِمينَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ»[(١)]؛ لأنَّه أثقلُ الأعمالِ الصالحةِ.

وجاءَ عندَ التِّرمِذيِّ مِن حَديثِ أَبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ»[(٢)].

ومعَ كلِّ أسَفٍ انظُرْ إلى حالِ الأُمةِ اليَومَ كيفَ تَنكَّبَتِ الطريقَ الموصلَ إلى هذا العملِ الصالِحِ في حياتِها اليوميةِ.

قالَ الماوَرديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابِه «أدَب الدُّنيا والدِّينِ»: «فإذا حَسُنَت أخلاقُ الإنسانِ كثُرَ مُنصِفوه، وقلَّ مُعادوهُ فتَسهَّلَت عليه الأمورُ الصعابُ، ولانَتْ له القلوبُ الغضابُ»[(٣)].

وصدَقَ رسولُ اللهِ ﷺ وهوَ يُرشدُ أنَّ الخُلقَ الحسَنَ إذا رَفرفَ في مُجتمعٍ نَما هذا المجتمعُ وتطوَّرَ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: كما جاءَ في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندَ الإمامِ أحمدَ في مُسنَده: «صِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ، وَحُسْنُ الجِوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٦)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٩)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٣).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٤٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩).

فهذا عمَلٌ صالحٌ يحبُّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهوَ الخُلُقُ الحسنُ.

* **عملٌ آخرُ** وهوَ منَ الأعمالِ الصالحةِ الَّتي نفعُها مُتعدٍّ، وهوَ مِن محبوباتِ اللهِ: **إتقانُ العملِ**.

وما مِن أحدٍ صغيرٍ أو كبيرٍ إلَّا وهوَ مكلَّفٌ بعملٍ، فالخطيبُ، والمؤذِّنُ، والعاملُ في معملِه لا بُدَّ أن يُتقنَ عمَلَه، وكلُّ واحدٍ منَّا لا بُدَّ أن يُتقنَ عمَلَه، حتَّى في صلاتِنا لا بُدَّ أن نُتقنَ العملَ؛ لِذا قالَ النبيُّ ﷺ في حَديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عندَ الطبَرانيِّ في مُعجَمه الأَوسَط: «**إِنّ اللهَ تَعَالى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»(١).

هذا مِن محبوباتِ اللهِ، أيًّا كانَ هذا العملُ.

وانظُرْ إلى الأُممِ الَّتي تَقدَّمَت ونَهضَت إنَّما أُوتِيَت مِن قبلِ هذا الجانبِ حينَما أَتقنَتِ العملَ، فكُلَّما أَتقَنَّا العملَ تقدَّمْنا، وما هذا الحالُ الَّذي فيهِ الأُمةُ إلَّا لأنَّها أساءَتِ العملَ.

وقد حدَثَ في عهدِ النبيِّ ﷺ أنَّه خرجَ في جَنازةٍ، والجوُّ جوُّ حزنٍ، وبدَأَ مَن معَه بحفرِ القبرِ، وتَسويةِ اللحدِ، ليَضَعوا الميتَ، والنبيُّ ﷺ يُكرِّرُ هذه الجملةَ: «**سَوُّوا هَذَا اللَّحْدَ**» قالَ الراوِي: حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ، فَأَرَادَ ﷺ أَنْ يُصْلِحَ المَفَاهِيمَ لِيُوَصِّلَهُمْ إِلَى هَذَا العَمَلِ قَالَ: «**أَمَا إِنَّ هَذَا**» أي: الإرشادَ الَّذي كُنت أُردِّدُه «**لَا يَنْفَعُ المَيِّتَ وَلا يَضُرُّهُ**» أي: لم يكُنْ إرشادِي لهذا القصدِ، فقدْ ذهَبَ الميتُ

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند رقم (٤٣٨٦)، والطبراني في المعجم الأوسط رقم (٨٩٧)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٩٢٩).

بعمَلِه، «وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ العَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ»[(١)]، فلأنَّ هذا عمَلُك لا بُدَّ أن تُحسِنَه، يُربِّيهم ﷺ على هذا الأصلِ.

وبينَما النبيُّ ﷺ جالِسٌ في مَسجدِه إذْ دخلَ رجُلٌ فصلَّى والنبيُّ ﷺ يَنظرُ إليهِ، فلمَّا فرغَ مِن صلاتِه جاءَ فسلَّمَ على النبيِّ ﷺ، وأَرادَ أن يَجلسَ، قالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فرجَعَ وكبَّرَ وصلَّى، ثُم عادَ فسلَّمَ، فلمَّا أَرادَ أن يَجلسَ قالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» يُكرِّرُها ثلاثًا ﷺ حتَّى قالَ الرجلُ: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي»[(٢)].

هو نعَمْ كانَ يُصلِّي، لكِنَّه لم يُحسِنْ في صلاتِه؛ لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١ - ٢].

وقالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدتِه في نونيَّتِه:

وَاللهُ لَا يَـــرْضَى بِكَثْـــرَةِ فِعْلِنـــا ... لَكِـــنْ بِأَحْسَـــنِهِ مَـــعَ إِيـــمَانِ[(٣)]

نظرَ حُذيفةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى رجلٍ وهوَ يُصلِّي ويُطفِّفُ في صلاتِه -يُخفِّفُ في صلاتِه، فلا يُقيمُ ركوعًا، ولا سُجودًا- فقالَ لهُ حُذيفةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مُنْذُ كَمْ وَأَنْتَ تُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَنْتَ لَا تُصَلِّي،

(١) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٤٩٣٢)، من حديث كليب الجرمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) النونية (ص: ٣٥).

وَلَوْ مُتَّ عَلَى هَذِهِ الصَّلَاةِ لُمْتَ عَلَى غَيْرِ فِطْرَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»[(١)].

إذًا: مِمَّا يُحِبُّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إحسانُ العملِ وإتقانُه؛ لذا أُكَرِّرُ أنَّ العاقلَ العابدَ الراشدَ الفطِنَ هوَ الَّذي يَنظرُ في محبوباتِ حَبيبِه فيَتقرَّبُ إليهِ بِها.

* **عَملٌ صالحٌ ثالثٌ يُحِبُّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهو إدخالُ السرورِ على الآخَرين،** فأنتَ حينَما تُدخلُ السرورَ على غيرِك تَنظرُ في هذا العملِ، وتَعلمُ أنَّ هذا العملَ يُسرُّ به والدُك، فتَعمَلُه أمامَه تُدخلُ عليهِ السرورِ، أو تُسَرُّ بهِ والدتُك، فتدخلُ عليها مِن هَذا البابِ، وهَذا مِمَّا يُحِبُّه اللهُ.

وجاءَ في حَديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رجُلًا سألَ النبيَّ ﷺ قالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟**» فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ**»[(٢)].

بأيِّ وسيلةٍ كانَت، حِسيةً أو مَعنويةً، أو بكلِمةٍ تُسمعُها له، أو ببذلٍ، أو بشَفاعةٍ، أو بأمرٍ تُعينُه عليهِ. هذه أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ.

وهُناكَ مَن يَتعمَّدُ أن يُدخلَ النكدَ والكآبةَ على أهلِ بَيتِه، يظنُّ هذا المسكينُ أنَّ هَذا منَ الرُّجولةِ، والفُتوةِ، لا إنَّما العاقلُ هوَ الَّذي يُدخلُ السرورَ على أهلِ بَيتِه، وعلى مَن حَولَه، فهذا أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب تطفيف الصلاة، رقم (١٣١٢)، أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا لم يتم الركوع، رقم (٧٩١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤٥٣، رقم ١٣٦٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٤٨).

وقد جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ وسأَلَه أسئلةً طَويلةً، ومِن جُملةِ ما سأَلَه، سأَلَه عَنِ المعروفِ، فقالَ النبيُّ ﷺ «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ» قالَ في السابعةِ: «وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الوَحْشَانَ بِنَفْسِكَ فِي الأَرْضِ»[1].

والناسُ اليومَ -بما يَسمَعون مِن هذهِ الهمومِ والغمومِ والأخبارِ- يَحتاجون لِمَن يُدخلُ عليهمُ السرورَ، والأُنسَ، فهذهِ عبادةٌ، وهذا عملٌ صالحٌ تَتقرَّبُ به إلى اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى؛ إنَّها أعمالٌ يسيرةٌ، ولكِنَّ الآخِذَ بها قليلٌ.

⁂

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٢)، من حديث أبي تميمة الهُجَيْمِي، عن رجل من قومه.

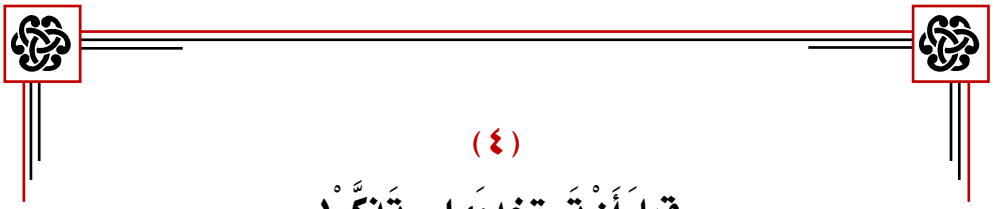

(٤)

قبل أنْ تستخدمَها.. تَذكَّرْ!

نعلَمُ جميعًا أنَّه مَا مِن نِعمةٍ يَنعمُ بِها الخلقُ، إلَّا وهِيَ مِن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحدَه، القائلِ في كِتابِه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ونعلَمُ يَقينًا أنَّ هذه النِّعمَ مِنها ما هوَ ظاهرٌ، ومِنها ما هوَ باطنٌ، وكلُّها مِن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سخَّرَها لعبادِه، حيثُ يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ونعلمُ يقينًا أنَّه لا يُمكنُ أن تُحصَى هذه النعمُ؛ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ونعلمُ يَقينًا أنَّ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هَذه النعمِ سُننًا، فمَن شَكَرَها، وفعلَ ما يُرضِي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها؛ بُورِكَ لهُ فيها، وزادَتْ، أمَّا مَنِ استخدمَها في غيرِ مرضاةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ يَسلبُ مِنها البركةَ وتَزولُ، دلَّ على ذلكَ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: ٢١١]، وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨- ٢٩].

ومِن هَذهِ النعمِ الَّتي يَنعمُ بها الخلقُ، والَّتي نَعيشُها في زمانِنا -ولم يَعِشْها

الآباءُ ولا الأجدادُ- نِعمةُ وفرةِ وسائلِ التواصلِ، وسُهولةِ اقتِنائِها واستِخدامِها، إنَّها نِعمةٌ عظيمةٌ، فيها مِنَ الفوائدِ والخيرِ الشيءُ الكثيرُ، فكَمْ مِن بَعيدٍ قرَّبْتَه! وكَمْ مِن عَسيرٍ يَسَّرْته! وكَمْ مِن رحمٍ وُصلَ بِها! وكَمْ عِلمٍ حُصِّلَ بها! ولكِنَّها أيضًا لها وجهٌ آخرُ، فإنَّها إذا استُخدِمَت على خلافِ ما يُرضِي اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنَّ فيها مِنَ الشرورِ الشيءَ الكثيرَ، فبِها هُتِكَتِ الأعراضُ، وأُريقَتِ الدماءُ، وحَصَلتِ الخصوماتُ، وقامتِ الحروبُ، وبها منَ الشرِّ الشيءُ الكثيرُ.

لذا عليكَ قبلَ أن تَكونَ مُشاركًا ومستخدِمًا لهذه الوسائلِ أن تَتذكَّرَ أمورًا، فالغالبُ أنَّنا جميعًا نَستخدمُ هذه الوسائلَ، بينَ مُقِلٍّ ومُستكْثِرٍ، وفي الغالبِ لا يَنجو مِنِ استِخدامِها إلَّا النزرُ اليسيرُ مِنَ البشرِ، إمَّا أن تَكونَ مُرْسِلًا، أو مُستقبلًا، أو كاتبًا، أو قارئًا، أو مسجلًا، أو مُستمِعًا، وهكذا.

فإذا أرَدْت أن تَستخدمَ هَذه الوسائلَ فتَذكرَ أمورًا في غايةِ الأهميةِ:

الأمرُ الأولُ: أنَّك مَسؤولٌ عنِ استخدامِكَ هَذا، ومَسؤولٌ عمَّا تَكتبُ وتَقرأُ وتَسمعُ وتقولُ، ويومَ القيامةِ لا بُدَّ أن تُسألَ عن هَذا الاستخدامِ، وعَن هَذه المشاركةِ، خيرًا فعَلْت أو شرًّا، حتَّى عنِ الخيرِ ستُسألُ.

دليلُ ذلكَ قولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ ق: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [ق: ١٧- ١٩].

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ الإسراءِ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ النورِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الجاثِيةِ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الانفطارِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

فلا تظُنَّ أنَّ الأمرَ هيِّنٌ، ولا تظُنَّ أنَّها تَغريدةٌ تَنشرُها ثُم تَمحوها؛ لأنَّ هُناكَ مَن يَملكُ نصفَ الشَّجاعةِ، أو يَملكُ شَجاعةً وَهميةً، يَنشرُ تَغريدةً، أو يَكتبُ مُدوَّنةً، أو يَبثُّ تسجيلًا يثيرُ به الرأيَ العامَّ، أو يُحرِّضُ بهِ على أمرٍ ما، ولكِنَّه ما يَلْبَثُ أن يَمحُوَها بسُرعةٍ، فنَقولُ لهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

وتَذكَّرْ قولَ مَن قالَ:

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيَفْنَى ... وَيُبْقِي الدَّهْرُ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ

فَلَا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ ... يَسُرُّكَ فِي القِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ[1]

الأمرُ الثاني: تَذكَّرْ أنَّ اللهَ مُطَّلعٌ عليكَ، يعلمُ سرَّك ونَجواكَ، ويَعلمُ اسمَك الحقيقيَّ، والاسمَ المستعارَ الَّذي تَكتبُ مِن وَرائِه؛ لأنَّ هُناكَ مَن يَكتبُ بوَجهينِ اثنَينِ: وجهٍ مَعلومٍ، وآخرَ يَكتبُ بأَسماءٍ مُستعارةٍ، وبشَخصياتٍ وَهميةٍ، له

(١) انظر: شمس العلوم لنشوان الحميري (٣/ ١٩٨٢)، سلاح المؤمن في الدعاء لابن الإمام (ص: ٥٢٥)، غير منسوب.

حِسابات وَهميةٌ يُشاركُ فيها لمآربَ هوَ أعلمُ بِها.

فيُقالُ لهُ: اعلَمْ، إنْ خفِيَ أمرُك عنِ الناسِ، فلا يَخفَى على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فلْنَستشعِرْ هذا الأمرَ، ونَتذكَّرْ - قبلَ أن نُشاركَ - قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ النِّساءِ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٨].

قد تكونُ عندَه القدرةُ عَلى أنَّه يَستخفِيَ، ويُخفي نَفسَه عن أعيُنِ إدارةِ مُكافحةِ الجرائمِ الإلِكترونيةِ، وهُم يُتابعونَه، وعمَلُهم مَشكورٌ، ومَذخورٌ لهم، فإنَّهم يُقدِّمون للمُجتمعِ خَيرًا كثيرًا.

قد يظُنُّ أنَّه رُبَّما تَلاعبَ بِهم إذا استخدمَ حِساباتٍ وهميةً خارِجيةً؛ ليُثيرَ شبهةً ما، فيُقالَ لهُ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ يونسَ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الزُّخرفِ: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وجاءَ أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أَوْصِني، قالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ»[1].

إذًا يَتذكرُ الإنسانُ أنَّ اللهَ مُطلعٌ عليهِ، وقبلَها يَتذكَّرُ أنَّه مَسؤولٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨١).

الأمرُ الثالثُ: قبلَ أن تُشاركَ، انظُرْ في نِيتِك، ماذا تريدُ مِن هَذه المشارَكةِ؟ إن كانَت خيرًا فأقدِمْ، وإن كانَتْ شرًّا فتوقَّفْ، وإن كنتَ لا تُريدُ الخيرَ ولا الشرَّ، فالأفضلُ ألَّا تُشاركَ، ولا تُؤذِ الناسَ بهذِه المشارَكاتِ الكَثيرةِ الَّتي ليسَ فيها خيرٌ ولا شرٌّ.

قالَ الحسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رحِمَ اللهُ عبدًا وقفَ عندَ همِّه -أي: عندَ إرادتِه- فإنْ كانَ للهِ مضَى، وإنْ كانَ لغيرِه تَأخَّرَ»[(١)].

ولا يَضُرَّك أن يُقالَ لكَ: لِمَ لَمْ تشارِكْ؟ ولكِنَّ الَّذي يَضرُّك أن يُقالَ لكَ: لمَ شارَكْتَ؟ أو لمَ كتَبْتَ؟ أو لمَ فعَلْتَ؟

وهُنا أنبِّهُ على أمرٍ عظيمٍ، فقَد يَخدعُك الشيطانُ، ويُصوِّرُ لكَ أنَّ مُشاركتَك فيها الخيرُ، والحقيقةُ أنَّ فيها شرًّا،؛ لأنَّ بعضَ الناسِ يَتظاهرُ أنَّه يَنصحُ، وهوَ في الحقيقةِ يَفضحُ، أو يتصوَّرُ أنَّه مُصلحٌ، وهوَ في الحقيقةِ مُفسدٌ، أو يتصوَّرُ أنَّه شاركَ مِن أجلِ المصلَحةِ العامةِ، وهوَ في الحقيقةِ شاركَ لأجلِ مَصلحتِه الخاصةِ.

قالَ ابنُ قيِّمِ الجوزيةِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامٍ رائعٍ جميلٍ في كِتابِه «بَدائِع الفوائِدِ»: «الشيطانُ يأمرُ بسَبعينَ بابًا مِن أبوابِ الخيرِ، إمَّا ليَتوصَّلَ به إلى بابٍ واحدٍ منَ الشرِّ، وإمَّا ليفوِّتَ بها خيرًا أفضلَ مِن تِلكَ السَّبعينَ بابًا»[(٢)].

فالعاقلُ يقِفُ عندَ همِّه، ويستحضرُ تلكَ الآيةَ العظيمةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٦٣٣٥)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٨٩٤).
وانظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٠)، وإغاثة اللهفان (١/ ٨١).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦١).

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

الأمرُ الرابعُ: تَذكَّرْ ألَّا يَكونَ في استخدامِكَ لهذهِ الوَسيلةِ إيذاءٌ لأحدٍ، فلا تُؤذِ أحدًا باستِخدامِك هذهِ الوَسيلةَ، وانتبِهْ لِهذا الأمرِ جيدًا، فرُبَّما شارَكْت بها فيما يظهرُ لكَ أنَّه خيرٌ كما تَقدمَ، قد تُصوِّرُ صورةً وتَنشرُها، ويكونُ فيها شرٌّ وإيذاءٌ للآخَرينَ.

وهُنا أنبِّهُ الَّذينَ يُصوِّرون حوادثَ الطرقِ، ويَقولُونَ: هذهِ مُشاركةٌ، ولكِنَّها مُشاركةٌ خاطِئةٌ، وفيها إثمٌ، حينَما تُصوِّرُ هذه الحوادثَ الَّتي في الطرقِ تَتدخلُ في خصوصياتِ هَذا المصابِ الَّذي لا يُريدُ أن يُصوِّرَه أحدٌ، ورُبما نقَلْت صورةَ إصابتِه أو وفاتِه إلى ذَويهِ وهُم لا يَعلَمون، فسبَّبت لهمُ الأذَى، ولم يُلزِمْك أحدٌ بذلكَ، وليسَ هَذا مِن عملِك، واحذَرْ أن تَنشُرَ ما فيه إساءةٌ للآخَرينَ وإيذاءٌ لَهم، وبعضُ الناسِ يظُنُّ أنَّه ذكيٌّ، فيَأتي بصُورٍ وحِيلٍ، كأنَّه يَقصدُ المدحَ وهو يَذمُّ، أو كأنَّه يَقصدُ النفعَ وهو يَضرُّ، لكِنَّ أمرَه لا يَخفَى على اللهِ.

وقالَ النبيُّ ﷺ: «**وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ**»[(١)].

فذلِكَ القائلُ قالَها على هيئةِ نَصيحةٍ، وهوَ في الحَقيقةِ يَقصدُ الفَضيحةَ، أو قالَها بقَصدِ أنَّه يُداوِي، وهوَ في الحقيقةِ يجرحُ؛ لِذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَنْ قَالَ**

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم (٤٨٨٣)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»[١].

وإنَّنا اليومَ - معَ كلِّ أسفٍ - نَرى جُرأةً عَظيمةً في استخدامِ هَذه الوسائلِ، ونَرى لعبًا في أعراضِ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ، وجُرأةً في الحديثِ عنِ الناسِ لم تكُنْ مَسبوقةً، ولم نَرَها ولم نَسمَعْ بِها في الأزمنةِ الماضيةِ، وهَذا أمرٌ خطيرٌ تغافلَ الناسُ عنهُ، والنبيُّ ﷺ يَقولُ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[٢].

فكَما أنَّ الدمَ حرامٌ، فالأعراضُ كذلِك حَرامٌ.

تلكَ الجُرأةُ قَد وصَلَت وبلَغَت إلى ولاةِ الأمرِ، ولم تكُنْ مَسبوقةً، فيُصوِّرُ الإنسانُ نفسَه -وهوَ يسبُّ ويَشتمُ- في جُرأةٍ عَظيمةٍ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الأَرْضِ أَهَانَهُ اللهُ»[٣].

لِذا هيَ نِعمةٌ، ولكِنْ لنَستخدَمَها في مَرضاةِ اللهِ.

✖ ⌑ ✖

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، وأبو داود: كتاب الأقضية، باب في من يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، رقم (٣٥٩٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٨)، والترمذي: كتاب الفتن، رقم (٢٢٢٤)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥)

التَّسامُحُ

سَماحةُ الإسلامِ مَنهجٌ ربَّانيٌّ، يمتَدُّ ليَشملَ كلَّ الخَلقِ على اختِلافِ أنواعِهم، وأَجناسِهم، وتَوجُّهاتِهم، وتَصوُّراتِهم، وهيَ دينٌ وشريعةٌ، دينٌ هوَ أحبُّ الأديانِ إلى اللهِ كما أخبَرَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَما سُئِلَ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى اللهِ؟ قالَ: «**الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»(١). أي: الحنيفيةُ المائِلةُ عَن كلِّ شِركٍ وعَقيدةٍ باطِلةٍ، وعَن كلِّ خُلقٍ رَديءٍ.

وسَماحةُ الإسلامِ دَعوَى لا يُرادُ بها دَغدغةُ المشاعِرِ، وتَكثيرُ سوادِ المؤيِّدينَ لِهذا الدِّينِ، ولا يُرادُ بها إرضاءُ الشرقِ أوِ الغربِ، وإنَّما هيَ عَقيدةٌ وشريعةٌ، وعبادةٌ يَتقرَّبُ بها المسلمُ إلى مَولاهُ، فقَدْ جاءَ في حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئلَ النبيُّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ العمَلِ أفضلُ؟ قالَ: «**الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ**»(٢).

وسماحةُ الإسلامِ جانبٌ مِنَ الجوانبِ المُشرِقةِ في هَذا الدِّينِ، لا يُمكنُ أن يُنالَ بالكلامِ، وإنَّما لا بدَّ أن تَستذكرَ فيه سيرةَ سيِّدِ الأنامِ مُحمدٍ ﷺ الَّذي تُمَثِّلُ هذا الخُلقَ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٨٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وعلقه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (١/ ١٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١٠٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٩٢٦٠).

وسَماحةُ الإسلامِ هيَ أن تَعيشَ مُتسامِحًا، ليِّنَ الجانبِ، سَهلَ العريكةِ، حسَنَ الخَليقةِ، وهيَ تَعني أن تَرتاحَ؛ لأنَّ المتسامِحَ في راحةٍ كما قالَ أبو العتاهيةِ

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ لَمْ يَصْفُ عَيْشُهُ ... وَمَا يَسْتَطِيبُ العَيْشَ إِلَّا المُسَامِحُ[1]

وكَما قالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ ... أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ العَدَاوَاتِ

إِنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... لِأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنْ نَفْسِي بِالتَّحِيَّاتِ

وَأُظْهِرُ الحُبَّ لِلْإِنْسَانِ أُبْغِضُهُ ... كَأَنَّمَا قَدْ حَشَا قَلْبِي مَوَدَّاتِ[2]

والسماحةُ قوةٌ لا ضعفٌ، وشموخٌ وعزٌّ لا قهرٌ ولا ذُلٌّ، وهيَ انتصارٌ لا هَزيمةٌ؛ لِهذا انظُرْ إلى هَذا حينَما انتصَرَ، وعزَّ، وقوِيَ، قالَ الشَّاعرُ:

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدَّا

فَإِنْ يَأْكُلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ يَهْدِمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا

وَلَا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ كَرِيمُ النَّفْسِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا[3]

والحديثُ عنِ السماحةِ في الإسلامِ لا بُدَّ له مِن نظرةٍ في سِيرةِ النبيِّ ﷺ فهيَ

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص: ١١٥).

(٢) ديوان الشافعي (ص: ٣٩).

(٣) الأبيات للمقنع الكندي، انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٧٢٨)، وديوان الحماسة بشرح المرزوقي (ص: ٨٢٩)، وتاريخ بغداد (٢٠/ ١٢٠).

لا تُحصَرُ في العفوِّ، وإنَّما هيَ عِبادةٌ شامِلةٌ تظهرُ لكَ مِن خِلالِ سَماحةِ الإنسانِ، وكرَمِه، وإحسانِه، ولِينِ عَريكتِه، وهَذا الَّذي نَقرؤُه في سيرةِ النبيِّ ﷺ، ولا يُمكنُ أن يَكونَ الإنسانُ مُتسامحًا معَ الأباعدِ إذا لم يكُنْ مُتسامحًا معَ نَفسِه ومعَ الأقاربِ، ومَن يَفشَلُ أن يَكونَ مُتسامحًا معَ نفسِه لن يَكونَ مُتسامِحًا معَ الغيرِ، فإنَّ مِنَ الناسِ مَن يعيشُ خُصومةً معَ نفسِه -إذا لم يكُنْ مُتسامحًا معَ نَفسِه- فهذا لا يَتسامحُ معَ الآخَرينَ.

وهَذهِ مَشاهدُ في غايةِ الجمالِ نَلحظُها مِن هذهِ النماذجِ في سِيرتِه ﷺ:

النموذجُ الأوَّلُ: كانَ مُتسامِحًا معَ أهلِ بيتِه، يَأمُرُنا ويَقولُ: «**خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[(١)].

ثُم يَأتي التطبيقُ العمَليُّ فنَراهُ كما يقولُ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانَ النبيُّ ﷺ يُصلِّي الصبحَ ثُم يَجلسُ في مُصلَّاهُ، ويَلتفُّ أصحابُه مِن حولِه حتَّى تَطلعَ الشمسُ، ثُم يَخرجُ؛ فيَدخلُ على نسائِه امرأةً امرأةً، يسلِّمُ عليهِنَّ ويَدعو لهنَّ، ويَفعلُ مِثلَ ذلكَ بعدَ صلاةِ العصرِ»[(٢)]. وذلكَ لأنَّه يحملُ نَفْسًا مُتسامِحةً.

فلا يَفعلُ ذلكَ إلَّا المتسامحُ، فهوَ متسامحٌ معَ أهلِ بيتِه في أقربِ الدوائرِ إليهِ، فمَن ليسَ لهُ إلَّا زَوجةٌ واحِدةٌ هَل يَسلمُ إذا دخَلَ علَيْها؟ أو يَدْعو لها؟ إنَّ مِن الناسِ مَن ليسَ لهُ إلَّا زوجةٌ واحِدةٌ، فإذا دخلَ علَيْها لا يَسلمُ، ولا يَدعو، ورُبَّما دَعا عليها؛ لأنَّه غيرُ مُتسامحٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٧٢)، والترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٤١٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٨٧٦٤).

النموذجُ الثاني: تَسامحُه معَ أولادِه ﷺ؛ قالَتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا، وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ**»[(١)]. وذلِكَ لأنَّه ﷺ يحملُ نَفْسًا مُتسامِحةً.

النموذجُ الثالِثُ: تَسامُحُه معَ أحفادِه، وقد رَوَى لَنا الصحابيُّ الجليلُ شدَّادُ بنُ الهادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَشهدًا في غايةِ الروعةِ والجَمالِ، قالَ: «دخلَ النبيُّ ﷺ المسجدَ، وهوَ يحملُ في يديهِ الحسَنَ أوِ الحُسينَ، فلمَّا أرادَ أن يُصلِّيَ وضَعَه بجانبِه، فلمَّا صلَّى وسجَدَ أطالَ السجودَ، فخشِيت عليهِ، فرفَعْت رَأْسي أنظُرُ، فإذا بالحسَنِ أوِ الحُسينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قدِ ارتحَلَ ظهرَ النبيِّ ﷺ يلعبُ، فلمَّا فرَغْنا مِن صلاتِنا، قُلنا: يا رَسولَ اللهِ، خشِينا عليكَ أن يكونَ حدَثَ لكَ أمرٌ! أو قد أُوحِيَ إليكَ!، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[(٢)].

فهذِه حاجةُ اللعِبِ عندَ الطفلِ جاءَت في هذا الوقتِ الَّذي يُصلِّي والدُه فيهِ، فلَمْ يَنهَرْه، ولم يغضَبْ مِنه، ولم يَزجُرْه، ولم يُبعِدْه حتَّى بيدِه، بل ترَكَه يلعبُ، وأطالَ السجودَ؛ لأنَّه يحملُ نَفْسًا مُتسامحةً، ليِّنةً، هَينةً. فلن نَكونَ مُتسامِحِينَ معَ الأباعدِ إذا فشِلْنا في التسامُحِ معَ الأقاربِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب ما جاء في القيام، رقم (٥٢١٧)، والترمذي: كتاب المناقب، باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ، رقم (٣٨٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٣)، والنسائي: كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، رقم (١١٤١).

النموذجُ الرابعُ: تَسامُحُه ﷺ معَ خَدَمِه في بيتِه، فقَدْ جاءَه رجلٌ فقالَ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي خادِمًا يُسيءُ ويَظلمُ»، وقالَ في روايةٍ أُخرى: «كَمْ أَعْفُو عنهُ؟» وكِلتا الروايَتينِ عندَ أبي داودَ، «كَمْ أَعْفو عَنهُ يا رَسولَ اللهِ؟»، قالَ: «**اعْفُ عَنْهُ سَبْعِينَ مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ**»[(١)]. ولا يفعلُ ذلكَ إلَّا المتسامِحُ؛ لِذا قالَتِ الناسُ: «المسامحُ كَريمٌ».

النموذجُ الخامِسُ: تَسامُحُه ﷺ معَ غيرِه مِن أَصحابِ الدِّياناتِ، أنَّه كانَ غُلامٌ يَهوديٌّ يَخدمُ النبيَّ ﷺ، رأَى النبيَّ ﷺ ورأَى شَمائلَه، وسَماحتَه رأيَ عَينٍ في بَيتِه، فمرِضَ هذا الغلامُ، وغابَ عنِ النبيِّ ﷺ فلأنَّه يَحملُ نَفْسًا مُتسامحةً، لم يقُلْ: هذا خادمٌ، أو: هذا غلامٌ، أو هذا يَهوديٌّ. بَلْ مشَى إليهِ النبيُّ ﷺ وقَدْ ترَكَ وراءَه أعباءً يَنوءُ عَن حملِها الجبالُ خاضعًا ﷺ في تَواضعِه وتَسامحِه إلى بيتِ اليَهوديِّ يعودُه، ويَطمئِنُّ عليهِ، نعَمْ هوَ قعَدَ عندَ رأسِه ﷺ وقالَ لهُ: «**أَسْلِمْ**»، فنظرَ الغلامُ إلى والِدِه، قالَ: «أطِعْ أَبا القاسِمِ». فأَسْلَمَ[(٢)].

وكانَ النبيُّ ﷺ قادرًا على أن يقولَ لهُ: أسلِمْ وهوَ في بيتِهِ يَخدمُه، ولكنَّه لم يقُلْ ذلكَ، بل قالَه في بَيتِ اليَهوديِّ، وفي حَضرةِ أبيهِ؛ ليُربِّيَ الأُمةَ على أنَّه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إنَّما هوَ عرضٌ أعرضُه عليكَ في بيتِك وفي حَضرةِ أبيكَ. إنَّه يحملُ نَفسًا مُتسامحةً ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في حق المملوك، رقم (٥١٦٤)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في العفو عن الخادم، رقم (١٩٤٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، رقم (١٣٥٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النموذجُ السادسُ: تَسامُحُه ﷺ معَ المُذنِبينَ، حتَّى وإن كانَ هذا الذنبُ ذنبًا كبيرًا، نعَمْ، فهُو ﷺ يُقيمُ حُدودَ اللهِ، ولكِنْ في حُدودِ الشرعِ، لا يَتجاوزُها، وهذا منَ التسامحِ، يُؤتَى ﷺ وقد أُوتِيَ النبيُّ ﷺ برجلٍ قد أكثَرَ مِن شُربِ الخمرِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**اضْرِبُوه**»، قالَ الراوِي: «فمِنَّا الضاربُ بيَدِه، ومِنَّا الضاربُ بنَعلِه، ومِنَّا الضاربُ بثَوبِه»، فلمَّا انصرفَ قالَ بعضُ القومِ: «أَخزاكَ اللهُ، ما أَكثَرَ ما يُؤتَى بكَ!»، فغضِبَ النبيُّ ﷺ وقالَ: «**لاَ تَقُولُوا هَكَذَا، لاَ تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**»(١). إنَّها النفسُ المُتسامِحةُ، الَّتي تصِلُ إلى هذا الحدِّ، أنَّها تَدْعو للمُذنبِ بمَغفرةِ الذنبِ والرحمةِ والهدايةِ.

فهَلْ فعَلْنا ذلكَ معَ أقربِ المذنِبينَ إلَيْنا؟ كأبنائِنا، أو إخوانِنا، أنْ نَدعوَ لهُم بمَغفرةِ الذنبِ، وبالرحمةِ، والهدايةِ، ولا يَفعلُ ذلكَ إلَّا المتسامحُ. فإذا فشِلْنا في التسامُحِ معَ أقربِ الدوائرِ إلينا؛ فلَنْ نكونَ مُتسامِحِينَ معَ الأباعدِ.

وغيرُ ذلكَ مِنَ النماذجِ والصوَرِ، فصدَقَ النبيُّ الكريمُ ﷺ حينَما قالَ في قاعدةٍ لَيْتَنا أخَذْنا بِها، قالَ: «**اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ**»(٢).

إنَّه خُلقُ التسامُحِ، هَذا النورُ الَّذي يَتلألأُ في سماءِ السالِكِينَ في مَفاوِزِ الحياةِ.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، رقم (٦٧٧٧)، وأحمد (٢/ ٣٠٠)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب الحد في الخمر، رقم (٤٤٧٧، ٤٤٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في المسند (١/ ٢٤٨)، وِجادةً بخط أبيه، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦)
الرُّجولةُ

الرُّجولةُ مَطلبٌ وهدفٌ تَسمو إليهِ نفوسُ أصحابِ الهِممِ، وهيَ قيمةٌ أخلاقيةٌ تنهضُ بالمُجتمعاتِ والأممِ، وهيَ عقيدةٌ راسِخةٌ وإيمانٌ صادقٌ وعبادةٌ للهِ دائمةٌ، والقادةُ العُقلاءُ همُ الَّذينَ يَبحَثون عنِ الرجالِ، وتَبحثُ أجهزتُهم عنِ الرجالِ الأشداءِ الأخيارِ الَّذينَ بِهِم تَقوَى الأوطانُ وتعزُّ الأديانُ، فهاهُوَ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ في دُعائِه: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ، بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**»، وكانَ أحبُّهما إليهِ عمرَ[(١)]، فأَسلمَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا بُدَّ أن تَبحثَ عيونُ القادةِ عنِ الرجالِ الَّذينَ بِهِم تَقوَى الأوطانُ وتعزُّ الأديانُ؛ لذا قالَ ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما زِلْنا أعزةً منذُ أسلمَ عُمرُ»[(٢)].

وفي يومٍ منَ الأيَّامِ أدارَ الهواءُ إزارَ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكشَفَ عَن ساقينِ دَقيقينِ نَحيلينِ، فضحِكَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِن دِقةِ ساقَيِ ابنِ مَسعودٍ، فقالَ النبيُّ ﷺ ليقرِّرَ قرارًا، ويُنبِّهَ على أمرٍ مُهِمٍّ، أنَّ الرجولةَ ليسَتْ في الملبسِ، ولا هيَ في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٩٥)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٨١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٨٤).

الشكلِ، ولا هيَ في الجسمِ، فقالَ ﷺ: «مَا يُضْحِكُكُمْ؟» قَالُوا: لِدِقَّةِ سَاقِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَـهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[(١)].

هكَذا هيَ الرجولةُ؛ لذا قالَ الأوَّلُ: ليسَ الرجلُ الَّذي إذا وقعَ في الأمرِ تَخلَّصَ منهُ، ولكِنَّ الرجلَ مَن يَتوقَّى الأمورَ حتَّى لا يقَعَ فيها.

وأخبرَنا النبيُّ ﷺ عَن يومِ القيامةِ، فقالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ العَظِيمُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، ثُم قالَ: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]»[(٢)].

وجلسَ الفاروقُ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يومٍ في دارٍ معَ أصحابِه، فقالَ لَهُم: تَمَنَّوْا. فقالَ الأولُ: أَتمنَّى لو أنَّ هذهِ الدارَ مَملوءةٌ ذهبًا أُنفقُه في سَبيلِ اللهِ. قالَ: تَمَنَّوْا، فقالَ آخرُ: أَتمنَّى لو أنَّ هذهِ الدارَ مَملوءةٌ لؤلؤًا وجواهرَ أتصدَّقُ بِها في سبيلِ اللهِ. ثُم سكَتوا وقالوا: تَمنَّ أنتَ يا أَميرَ المُؤمِنينَ. قالَ: تَمنَّيْت لو أنَّ هذهِ الدارَ مَملوءةٌ رِجالًا مِثلَ أَبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاحِ، ومُعاذِ بنِ جبَلٍ، وسالِمٍ مَولَى أَبي حُذيفةَ، وحُذيفةَ بنِ اليَمانِ، أَستعينُ بِهِم على إعلاءِ كلِمةِ اللهِ[(٣)].

هذهِ هيَ أَمانيُّ القائدِ وتطلُّعاتُه وطُموحاتُه، وهيَ ليسَتْ أَمانيَّ فحسبُ، بَلْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، رقم (٤٧٢٩)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة رقم (١٢٨٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٢).

هيَ استراتيجيةٌ عندَ عُمرَ، وهيَ البحثُ عَن رِجالٍ كَهَؤلاءِ الَّذينَ ذَكرَهم؛ لأنَّه لا يَرى لِهَذهِ الاستراتيجيةِ الَّتي يَضَعُها، لا يَرَى للكمِّ شيئًا، ولكنَّه يَبحثُ عنِ الكيفِ.

وهذا قُتيبةُ بنُ مُسلمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدُ القادةِ العِظامِ وهوَ يُحاصرُ عدوًّا لهُ وقبلَ أن يَنشبَ القتالُ، التَفَتَ يَمنةً ويَسرةً، قالوا: «عَن ماذا تبحثُ؟» قالَ: «أَبحثُ عَن مُحمدِ بنِ واسعٍ». قالوا: «هو ذاكَ في مَيمنةِ الجيشِ، جامِحٌ على قوسِه، رافعٌ أصبعَه نَحوَ السماءِ يَدعو»، فقالَ قُتيبةُ بنُ مُسلمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللهِ لأُصبعُ محمدِ بنِ واسعٍ أحبُّ إليَّ مِن مِئةِ ألفِ سَيفٍ شَهيرٍ، وشابٍّ طَريرٍ»[(١)]؛ لأنَّه يَنظرُ إلى الرُّجولةِ بِمعناها الحَقيقيِّ.

لهذا قالَ القائلُ:

هُـمُ الرجـالُ وغـبنٌ أَنْ يُقـالَ لِمَـنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعانِي وَصـفِهِم رَجُـلُ[(٢)]

والرجلُ في إسلامِنا له صِفاتٌ يَتميَّزُ بِها عَن غيرِه مِن أشباهِ الرجالِ، مِن هَذهِ الصفاتِ:

الصفةُ الأُولى: الطُّهرُ والنَّقاءُ، فهُم في طهارةٍ دائِمةٍ ونقاءٍ، طاهِرةٌ أبدانُهم، وقلوبُهم، ومُعتقداتُهم وأفكارُهم وتَصوراتُهم، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

(١) أخرجه ابن قتيبة في عيون الأخبار (١/ ٢٠٤)، والدينوري في المجالسة رقم (١٨١١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥٢- ٣٥٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ١٦٨).

(٢) انظر: نفح الطيب للتلمساني (٥/ ٢٦٣).

﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، هذهِ صِفتُهمُ، الطهرُ في نُطقِهم وفي سُكوتِهم، طاهرةٌ أبدانُهم وقلوبُهم؛ لذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في صَحيح مُسلمٍ مِن حديثِ أَبي مالِكٍ الأَشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ**»(١).

الصفةُ الثانيةُ: أنَّ قُلوبَهم تَهفو إلى المساجدِ للصلاةِ، فبعدَ أن كانَ طاهرًا في ظاهِرِه وباطِنِه، تعلَّقَ قلبُه بالمسجدِ لأداءِ الصلاةِ، هاهُنا القوةُ؛ لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦- ٣٧].

وجاءَ في وَصفِهم في قولِ النبيِّ ﷺ حينَما ذكَرَ السَّبعةَ الَّذينَ يُظلُّهمُ اللهُ في ظِلِّه، قالَ: «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ**»(٢).

وفي الأُمةِ رِجالٌ على هذهِ الشاكِلةِ وعلى هذا الشأنِ في القديمِ والحديثِ:

قالَ سَعيدُ بنُ المسيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أَذَّنَ المؤذِّنُ منذُ ثَلاثينَ سَنةً إلَّا وأَنا في المسجِدِ»(٣). فأيُّ قوةٍ وأيُّ رُجولةٍ هَذهِ؟!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٤٢)، وأحمد في الزهد رقم (٢٢٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٦٢).

وقالَ ابنُ خَفيفٍ: «إذا سِمِعْتُم: «حيَّ عَلى الصلاةِ» فلَمْ تَرَوْني في المسجدِ فاطْلُبوني في المقبرةِ»[(١)].

وقالَ الأوَّلُ:

يَمْشونَ نَحوَ بُيوتِ اللهِ إِذْ سَمِعوا ... اللهُ أَكْبَرُ فِي شَوْقٍ وَفِي جَزِلِ

هُمُ الرِّجالُ فَلَا يُلْهِيهِمُ لَعِبٌ ... عَنِ الصَّلاةِ وَلا أُكذوبةُ الكَسَلِ

الصِّفةُ الثالِثةُ: يَخافونَ، فالرجالُ يَخافونَ، ولكِنَّهم يَخافون اللهَ، فلا يَقتَرِبونَ منَ الحرامِ فضلًا عَن أن يَرتكِبوهَ، يَخافونَ منَ اللهِ، صفةٌ لازمةٌ فيهِم، وقَد قالَها الأنبياءُ في عدَّةِ مواضعَ في كِتابِ الله، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَـمَّا ذكَرَ الرجالَ قالَ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]؛ لأنَّهم يَعلمونَ أنَّ هذَا الخوفَ يُورِثُ الجِنانَ، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

هذهِ هيَ الرُّجولةُ، فالرُّجولةُ ليسَت بصَوتٍ يَرتفعُ بالصياحِ والصراخِ، ولا بالاستِبدادِ وفرضِ الرأيِ، ولا تَعني أنَّ الإنسانَ يَترفَّعُ على غيرِه مِنَ الناسِ ويَحتقرُهم، بلِ الرجولةُ قوةٌ في رحمةٍ، وعزٌّ في تَواضعٍ، هذهِ هيَ الرجولةُ.

الصفةُ الرابعةُ: أنَّه صادقٌ ويُوفي بوَعدِه إذا وعدَ، فالرجلُ لا يَكذبُ ولا يَخونُ، فليسَتْ هذهِ مِن خصالِ الرجالِ، قالَ إيَّاسٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «امتَحَنْت خِصالَ الرجالِ فوجَدْت أَشرفَها الصِّدقَ»[(٢)].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/ ٣٤٦).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠/ ٢٠)، وتهذيب الكمال للمزي (٣/ ٤١٣).

لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَن هَذهِ الصِّفةِ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ لأنَّهم صادِقون ولوَعدِهم وافونَ لا يَتبدَّلون.

فالرجلُ لا تُبدِّلُه المُغرِياتُ ولا العَطايا، ولا تَراه مُتتبعًا للموجةِ الأعظمِ والأكبرِ، بَلِ الرجالُ ثابِتونَ على مَبادئِهم؛ لذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا ائْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»[1].

فمَن جاءَ بهذهِ الستِّ ضمنَ له رَسولُ اللهِ ﷺ الجَنةَ، وهيَ في مُجملِها مِن صِفاتِ الرجالِ الَّذينَ ذكَرَهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابِه وعَلى لسانِ رَسولِه ﷺ.

✖ ⌑ ✖

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧)

ميادينُ الصَّبرِ (١)

ما مِنَّا مِن أحدٍ وإلَّا وهوَ في حاجةٍ إلى خُلُقِ الصبرِ، فالصبرُ سِلاحُ المؤمنِ في مواجهةِ الحياةِ بخَيرِها وشَرِّها، وهوَ الأساسُ والمتَّكأُ الَّذي تَتَّكئُ عليهِ جميعُ الأَخلاقِ، والصبرُ هوَ ضبطُ النفسِ عنِ السآمةِ والمَلَلِ والخوفِ والفزعِ، وهوَ ضبطُ النفسِ عَنِ الانسياقِ وراءَ الشهواتِ والأهواءِ والطمَعِ، وهوَ ضبطُ النفسِ عنِ التضجرِ والتذمرِ والجَزَعِ، وهوَ ضياءٌ يُنيرُ دروبَ السالِكينَ في هذهِ الحياةِ الدُّنْيا، كما أَخبرَ بذلكَ رَسولُ اللهِ ﷺ حينَما قالَ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»[(١)].

والصبرُ حبسُ النَّفْسِ عَلى فِعلِ شَيءٍ أو تَركِه، والغايةُ في ذلكَ ابتِغاءُ وَجهِ اللهِ تَعالى كما أَخبرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كِتابِه قائِلًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٢- ٢٤].

إِنَّ الأُمُورَ إِذَا سُدَّتْ مَطَالِبُهَا ... فَالصَّبْرُ يَفْتِقُ مِنْهَا كُلَّ مَا ارْتُتِجَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَا تَيْأَسَـــنَّ وَإِنْ طَالَـــتْ مُطَالَبَـــةٌ إِذَا اسْـتَعَنْتَ بِصَـبْرٍ أَنْ تَـرَى فَرَجَـا

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنِ القَرْعِ لِلأَبْـوَابِ أَنْ يَلِجَـا[1]

والصبرُ قوةٌ وعَزيمةٌ وانتصارٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

والصبرُ يُمتحَنُ بهِ العبادُ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٤٢].

وبالصبرِ تَتضاعَفُ الحَسناتُ وتَرتفعُ الدرَجاتُ، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٤].

وقالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وبالصبرِ يَتحقَّقُ الفلاحُ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وبالصبرِ تَتحقَّقُ الإعانةُ ويَحصلُ التأييدُ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وبالصبرِ يَنالُ العبدُ محبةَ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومَعيَّتَه؛ إذ قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

---

(١) ذكرها الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٩٠)، ونسبها لمحمد بن بشير.

والصبرُ شأنُه عَظيمٌ ومَيادينُه كثيرةٌ، وحديثُنا الآنَ عَن مَيدانَينِ مِن مَيادينِ الصبرِ، وهُما مَيدانانِ مُتقابلانِ:

١ - صبرٌ عندَ الضراءِ.

٢ - صبرٌ عنِ السراءِ.

فكَما أنَّنا نَحتاجُ إلى الصبرِ عندَ الضراءِ نَحتاجُ أن نُفعِّلَ هذهِ العبادةَ، وهيَ الصبرُ عندَ السرَّاءِ.

أمَّا الصبرُ على الضرَّاءِ والبلاءِ فمَن مِنَّا لم يُصَبْ بالبلاءِ؟ هذهِ الدارُ دارُ بلاءٍ وامتِحانٍ، وضراءٍ، كما أخبرَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، فهذهِ الدُّنْيا دارُ كبَدٍ كَما قالَ الأولُ:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ؟!

ومُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وَإِذَا رَجَوْتَ المُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا ... تَبْنِي الرَّجَاءَ عَلَى شَفِيرٍ هَارِ[1]

فهذه الدارُ دارُ بلاءٍ، ولكِنَّ العِبرةَ فيها لِمَنْ صبرَ واحتسَبَ، وكلٌّ مِنَّا يُدركُ شيئًا مِن هَذا البلاءِ في نَفسِه، أو في ولَدِه، أو في أرضِه، أو في مالِه، ولكِنَّ الراشِدَ والموفَّقَ مَنِ احتسَبَ وصبرَ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ

(١) الأبيات لعلي بن محمد التهامي، انظر: ذيل تاريخ بغداد لابن النجار (١٩/ ٣٨)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣/ ٢٢٢)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٣٨٠).

قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقالَ سُبحانَه في سُورةِ الحجِّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤].

وأهلُ الصبرِ حينَما تَرتفعُ درَجاتُهم في الآخِرةِ، ويَرَوْن النعيمَ الَّذي كُوفِئوا به على صَبرِهم، يَراهُم أهلُ العافِيةِ الَّذينَ لم يُصِبْهم منَ البلاءِ كَما أصابَ هَؤلاءِ، فيَتحسَّرون ويَتمنَّوْن لو أنَّهم أُصيبوا بالبلاءِ.

وقد جاءَ عندَ الترمذيِّ، مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ -رضِيَ اللهُ تَعالى عَنهُ وعَن أبيهِ- قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يَوَدُّ أَهلُ العَافِيَةِ يَومَ القِيَامَةِ حِينَ يُعطَى أَهلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَو أَنَّ جُلُودَهُم كَانَت قُرِّضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»[(١)]، أي: يَتمنَّوْن لو أنَّهم أُصيبوا بالبلاءِ حينَما يَرونَ النعيمَ يَتدفَّقُ على أهلِ البلاءِ؛ وذلكَ لصَبرِهم واحتِسابِهم.

والعبدُ إذا فقَدَ عزيزًا له -والدًا، أو ولدًا، أو حبيبًا- فصبَرَ على ذلكَ وتَجلَّدَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ عَن هَذا الصابرِ المُحتسبِ، والحديثُ عندَ النسائيِّ مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى لِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ إِذَا ذُهِبَ بِصَفِيِّهِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ فَصَبَرَ، وَقَالَ كَمَا أَمَرَ بِهِ رَبُّهُ، وَاحْتَسَبَ بِثَوَابٍ دُونَ الجَنَّةِ»[(٢)]. أي: لا يَرضَى له بشيءٍ دونَ الجَنةِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٢).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب ثواب من صبر واحتسب، رقم (١٨٧١).

كذلكَ هَذا الَّذي يَمرضُ، وكلُّنا ذلكَ الرجلُ، لكنَّ الصابرَ الَّذي لا يُردِّدُ إلَّا «الحمدُ للهِ»، فلا يَتشكَّى ويُكثرُ الشكوَى على المخلوقِ، ولا يَتسخَّطُ ويَتذمرُ، فقَدْ روَى الإمامُ مالكٌ في مُوطَّئِه مِن حديثِ عطاءِ بنِ يَسارٍ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فَقَالَ: انْظُرُوا مَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ؟ فَإِنْ هُوَ إِذَا جَاؤُوهُ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، رَفَعَا ذَلِكَ إِلَى اللهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: لِعَبْدِي عَلَيَّ إِنْ تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ وَإِنْ أَنَا شَفَيْتُهُ أَنْ أُبْدِلَهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، وَأَنْ أُكَفِّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ»[(١)].

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... وَلَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ[(٢)]

وكَما أنَّ العبدَ مُطالبٌ بأَنْ يُحيِيَ عبادةَ الصبرِ عندَ الضراءِ، فإنَّه يُحيي أَيضًا هَذهِ العبادةَ عندَ السرَّاءِ، فإذا أقبَلَتْ عليكَ النعمةُ فحقِّقْ هذهِ العبادةَ بالصبرِ عَلى هذهِ النِّعمةِ، فإنَّ السلفَ يَقولونَ: «الصبرُ عَلى البلاءِ يَكونُ مِنَ المؤمنِ والكافرِ، ولا يَصبرُ على العافِيةِ إلَّا صديقٌ»[(٣)].

وهذه العِبارةُ ذكَرَها الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَما قالَ: «ابتُلِينا بالضرَّاءِ فصَبَرْنا، وابتُلِينا بالسراءِ فلَمْ نَصبرْ»[(٤)].

والصبرُ على النِّعَمِ يَستلزمُ عدمَ الركونِ إلَيْها والاغترارَ بِها، وعدمَ التكبُّرِ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٤٠، رقم ٥).

(٢) ذكره الفيروزآبادي في بصائر ذوي التمييز (٣/ ٣٧٨)، غير منسوب، وهو بنحوه في ديوان كشاجم (ص: ٤٦٠).

(٣) عارضة الأحوذي لابن العربي (٨/ ١٧٨)، وعدة الصابرين لابن القيم (ص: ٦٤).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٦٤).

بِها، فإنَّ مِن مُستلزماتِ هذهِ النفسِ أنَّها إذا استَغْنَت طغَتْ، فَقَد قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦- ٧].

والصحةُ نِعمةٌ، والولدُ نِعمةٌ، والمالُ نِعمةٌ، والأمنُ نِعمةٌ، ونِعَمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَتْرا وكَثيرةٌ، والعاقلُ هوَ الَّذي يَصبرُ كلَّما أقبَلَت عليهِ النعمُ.

فإذا جاءَهُ المالُ وأَقبلَت عليهِ الدُّنيا، فعليهِ أن يَصبرَ، فلا يتغيَّرَ في سُلوكِه ولا يَأشرَ، ولا يَغترَّ، ولا يَتكبَّرَ.

كذلكَ الصبرُ على النعمةِ يَستلزمُ أن تَرَى حقَّ اللهِ فيها فتُخرجُه؛ زكاةً، أو غيرَ ذلكَ مِمَّا هوَ واجبٌ عليكَ في حُقوقِ الآخَرينَ.

ويستلزمُ أيضًا أن تَقنعَ بها، فقَدْ تَكونُ هذهِ النعمةُ أقلَّ مِن النعمةِ الَّتي عندَ غيرِك، فالصبرُ علَيْها أن تقنَعَ بِها، ولا تكُونَ مِثلَ أولئكَ الَّذين حينَما رأَوْا نِعمَ اللهِ على قارونَ غفِلوا عَن نِعمِ اللهِ علَيْهم، قالَ اللهُ تَعالى عَنْهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

أمَّا الَّذينَ عرَفوا عبادةَ الصبرِ في هَذهِ الحالِ فقالَ اللهُ تَعالى عَنْهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

إنَّها عِبادةٌ مِن أعظمِ العِباداتِ تَدخلُ لَنا في مَيادينَ مُتعدِّدةٍ، ذكَرْتُ مِنها مَيدانَينِ، والميادينُ كثيرةٌ.

(٨)

ميادينُ الصَّبرِ (٢)

تَحدَّثْنا فيما مضَى عَن مَيادينِ الصبرِ، وذكَرْنا مِنها الصبرَ عَلى البلاءِ، والصبرَ علَى النَّعماءِ.

أمَّا الآنَ فنَتحدَّثُ الآنَ عَنِ الصبرِ عَلى العِبادةِ، فكُلُّ عِبادةٍ أمرَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بفِعلِها أو أمرٍ نَهانا اللهُ عَن فِعلِه يَحتاجُ مِنَّا إلى صبرٍ، فالصلاةُ تَحتاجُ إلى صبرٍ، وغضُّ البصَرِ يحتاجُ إلى صبرٍ، والإحسانُ يَحتاجُ إلى صبرٍ، وبِرُّكَ لوالدَيْك يَحتاجُ إلى صبرٍ، وإنفاقُك وأداؤُك ما افترَضَ اللهُ عليكَ يَحتاجُ إلى صَبرٍ.

لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، مُبالغةً في كلمةِ الصبرِ بالاصطِبارِ. فتَحتاجُ أنْ تُصبِّرَ هذهِ النفسَ أنْ تَنقادَ إلى خالِقِها سُبحانَه؛ لأنَّها نَفسٌ تَتفلَّتُ وتَتمرَّدُ.

وقالَ الحقُّ سُبحانَه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

والصبرُ عَلى العِبادةِ يَكونُ قبلَ العِبادةِ وأثناءَها وبعدَ الفراغِ مِنها، كلُّ ذلكَ تَحتاجُ فيه إلى صبرٍ، فصبرُك قبلَ العِبادةِ بِحَيثُ تُحسِّنُ هذهِ النيةَ، فقبلَ أنْ تُصلِّيَ تُصبِّرُ هذهِ النفسَ.

وقد مرَّ بِنا أنَّ الصبرَ هوَ أَنْ تَحبسَ هذهِ النفسَ ألَّا تَلتفتَ إلى حبِّ الثَّناءِ والمدحِ منَ الآخَرينَ، فأنتَ لا تُصلِّي لفلانٍ، وهيَ تُريدُ أَنْ تُصلِّيَ لفلانٍ، وأَنْ تُزكِّيَ لفُلانٍ، وأَنْ تَفعلَ المعروفَ ليُقالَ عَنها كذا وكذا منَ المدحِ والإطراءِ، لكِنَّك بصَبرِك تُصبِّرُ هذهِ النفسَ ألَّا تَلتفِتَ إلَّا إلى جهةٍ واحدةٍ وهيَ إلى اللهِ؛ لِذا الصبرُ يَكونُ قبلَ العبادةِ.

قالَ الحقُّ سُبحانَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود: ١١].

وعَلى سَبيلِ المثالِ: طلبُ العِلمِ الشرعيِّ، وتَعلُّمُ القرآنِ، هُمَا مِن أَعظمِ العِباداتِ الَّتي يَتقرَّبُ بِها العبدُ إلى اللهِ، فإذا لم يُصبِّرْ نَفسَه أَنْ تكونَ هذهِ العبادةُ للهِ، فإنَّ مآلَه وَخيمٌ.

وقد قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعلَّمَ العِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ»، أي: يضَعَ نفسَه في مصافِّ العُلماءِ ويُفاخرَ بعِلمِه، «أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسَ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ»[1] فقَطْ تَغيَّرَت هذهِ النيةُ، لم يُصبِّرْ هذهِ النفسَ قبلَ العبادةِ.

ويَحتاجُ إلى الصبرِ أيضًا أثناءَ العبادةِ؛ بحيثُ يُصبِّرُ هذهِ النفسَ ألَّا تَزيدَ ولا تَنقصَ، وأَنْ تَلتزمَ بالواجبِ في عِبادتِه مما أَتَى بِه النبيُّ ﷺ؛ لذا قالَ الحقُّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]، عامِلون صبَروا في أثناءِ العملِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، رقم (٢٦٥٤)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويحتاجُ إلى الصبرِ أيضًا بعدَ الفراغِ مِنَ العبادةِ، فإذا صلَّى، أو زكَّى، أو أحسنَ، فلا يُسمِّعُ بعمَلِه الآخَرينَ ويَقولَ: أنا فعَلْت كَذا منَ الإحسانِ وفعَلْت كَذا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ»[1] أي: فضَحَه يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَظْهَرَ لِلنَّاسِ سَرِيرَتَهُ وَمَا كَانَ يَقْصِدُ.

وأعظمُ مِن ذلكَ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذي قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٣].

تلكَ العِبادةُ الَّتي صرَفْتم فيها وقتًا ومالًا وجُهدًا لا تُبطِلوها بالحديثِ عَنها، ولا بالمَنِّ كحالِ الصدقاتِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

ونفوسُنا نفوسٌ مُتفلِّتةٌ تَتطلعُ إلى حُبِّ المَحمَدةِ، تُريدُ أَنْ يُقالَ: فلانٌ مُزكٍّ، وفُلانٌ مُتصدِّقٌ، وفلانٌ فيهِ كَذا وكَذا، تريدُ أَنْ يَتحدَّثَ الناسُ عَن ذلكَ فيَنطلقُ هَذا اللسانُ يُخبرُ بما فعَلَ، فتحتاجُ أَنْ تَصبرَ وتَحبسَ هَذا اللسانَ، ولا تَتكلمَ.

كذلكَ مِن مَيادينِ الصبرِ: الصبرُ في التعاملِ معَ الناسِ، أرَأَيْت هؤلاءِ الناسَ الَّذينَ هُم حولَكَ؟ تَحتاجُ إلى أَنْ تُصبِّرَ نفسَك وأنتَ تَتعامَلُ معَهُم، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

فالغَنيُّ يُفتنُ به الفقيرُ، والقويُّ يُفتنُ بِهِ الضعيفُ، فأنتَ تَرى الناسَ حولَك

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٧)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بينَ غنيٍّ وفقيرٍ، وقويٍّ وضَعيفٍ، وتَرَى في الناسِ مُحبًّا لكَ ومُبغضًا، وتَرى في الناسِ صَديقًا لكَ وعَدوًّا، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

فلا بُدَّ أَنْ تُدركَ تَمامًا أنَّك حينَما تَعيشُ في الناسِ أنَّك تَعيشُ معَ بشَرٍ ومُقتضَى بشَريتِهم أنَّهم يُخطِئون ويُصيبونَ، ويُحسِنون ويُسِيئون، فلا بدَّ أَنْ تُصبِّرَ نفسَك معَهم؛ فإنَّك لا تَعيشُ معَ ملائِكةٍ، فأنتَ كذلِكَ تُصيبُ وتُخطئُ، وتُحسنُ وتُسيءُ، وتحتاجُ منَ الآخَرينَ أَنْ يَصبِروا عليكَ.

لذا قالَ الرسولُ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[(١)].

وهُناكَ منَ الناسِ نفرٌ يقولُ: أَنا لا أَستطيعُ أَنْ أَعيشَ في المُجتمعِ؛ لأنَّ فيهِ كذَّابينَ وخونةً، وفيهِ كَذا وكذا. أقولُ لكَ: إنَّ اللهَ يُريدُ أَنْ يَمتحنَ صبرَك وحِلمَك وعَفوَك وإحسانَك، فالمؤمنُ الَّذي يُخالِطُ النَّاسَ ويَصْبِر عَلَى أَذَاهُم خَيْرٌ مِنَ الَّذي لا يُخَالِط النَّاسَ ولا ويَصْبِر عَلَى أذَاهُم، وفي روايةٍ قالَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لا يُخَالِط النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[(٢)]؛ فمُقتضَى هَذه الخُلطةِ أَنْ تسمعَ وتَرَى ما يَسوؤُك.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكذلكَ أيضًا مِن ميادينِ الصبرِ: الصبرُ في الحياةِ الزوجيةِ، فنَحتاجُ أَنْ نَستصحبَ الصبرَ ونحنُ نَتعاملُ معَ زوجاتِنا، والزوجاتُ يَحتجْنَ إلى الصبرِ وهُنَّ يَتعامَلْن معَ أَزواجِهن، فلا بُدَّ مِن الصبرِ من الطَّرفَيْن، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

نعَمْ، قَدْ تَرَى في زَوجتِك ما تَكرهُ، وتسمعُ مِنها ما تَكرهُ، وتجدُ مِنها ما تَكرهُ ويَسوؤُك، لكِنْ بصبرِك هَذا قد تُدرِك خيرًا كثيرًا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ الَّذي لا يَنطقُ عنِ الهوَى، والحديثُ عندَ مُسلمٍ مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[1].

وهكَذا الحياةُ، فلا تَتصوَّرْ في زوجتِك أَنْ تَكونَ لكَ ملاكًا وأنتَ بشرٌ، بل هيَ بشَرٌ مثلُك، قد تحصلُ مِنها الإساءةُ كَما تحصُلُ مِنْك، ويَعتريها النقصُ كَما يَعتريكَ، فاقبَلْ بها لتَقبلَ بكَ، وهَذا هوَ فَحوَى الصبرِ.

ومِن مَيادينِ الصبرِ أيضًا: الصبرُ في تَربيةِ الأبناءِ، فكَمْ يُؤلِمُك حينَ تَسمعُ مِن بعضِ الآباءِ الَّذي يَقولُ: أنا عجَزْت في تَربيةِ ولَدي؟ تقولُ لَهُ: كَمْ عمرُ ولدِك؟ يقولُ: سبعٌ، أو ثَماني سنَواتٍ. فإنَّنا نَحتاجُ إلى الصبرِ في تَربيةِ الأبناءِ.

بعضُ الأبناءِ يَأتيكَ -جِبلَّةً وطَبيعةً- هينًا لينًا صالحًا، والآخرُ يَحتاجُ إلى تعبٍ منكَ، كحالِ هذهِ البذورِ الَّتي نَضَعُها: بعضُها خلالَ أشهرٍ نَأكلُ مِن ثِمارِه،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٩).

وبعضُها لا يُثمرُ إلَّا بعدَ ثَلاثينَ سَنةً، فصبِّرْ نَفسَك، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وإنَّ مِنَ الخطَأ الكَبيرِ أَنْ تَستسلمَ وتَرفعَ الرايةَ وتَقولَ لابنِك: اخرُجْ منَ البيتِ، فليسَ هَذا هديَ الصالِحينَ، فهذا نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -وهوَ نبيٌّ مِن أُولِي العَزمِ منَ الرسلِ- قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شَأنِه: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، أي: تعالَ في سَفينتِنا، وكُنْ معَنا في بَيتِنا.

فإذا حصَلَ له الانحرافُ وهوَ في بيتِك فأيُّ انحرافٍ سيَحصلُ له وهوَ خارجَ البيتِ؟! إنَّ مِنَ الصبرِ أن تَحتويَه على إساءتِه، ومنَ الصبرِ أنَّك تَتألَّمُ مِن مُعاناةِ خطَئِه.

ولكِنَّ هَذا الصبرَ ليسَ بالمجانِّ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»[1]، أي: في حالِ صَبرِه عليهِنَّ وإطعامِهِنَّ وسِقايتِهِنَّ وكِسوتِهِنَّ مِمَّا يجدُ مِن سَعتِه، كُنَّ لهُ حِجابًا مِنَ النَّارِ.

ومِن مَيادينِ الصبرِ: الصبرُ في تحقيقِ النجاحِ، فلا تَتصوَّرْ أنَّ النجاحَ الحقيقيَّ يَأتي بالنعيمِ أوِ الراحةِ، بل لا بُدَّ مِن أَنْ تَتعبَ وتَنصَبَ وتَشقَى، وهؤلاءِ العلماءُ الَّذينَ خَدَموا البشَريةَ إنَّما وصَلوا إلى ما وصَلوا إليهِ بالتعَبِ والنصبِ والصبرِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، رقم (٣٦٦٩)، من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهَذهِ الإضاءةُ الَّتي نَستفيدُ مِنها في جميعِ أنحاءِ العالَمِ لم يَصِلْ إليها مَن وصَلَ إلَّا بالصبرِ، ولا أقولُ: صبرُ سَنةٍ. بل يَصبرُ أحَدُهم عشراتِ السنينَ على مُنتجٍ يَخدمُ البشَريةَ؛ وقَدْ ذكرَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «مِفتاح دارِ السعادةِ» عنْ إبراهيمَ الحَربيِّ قالَ: «أجمعَ عُقلاءُ كلِّ أُمةٍ أنَّ النعيمَ لا يُدرَكُ بالنعيمِ، ومَنْ آثَرَ الراحةَ فاتَتْه الراحةُ»[(١)]؛ لذا قالَ الأولُ:

لَا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَا تُدْرِكُ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا[(٢)]

كذلكَ مِن مَيادينِ الصبرِ العظيمةِ: الصبرُ أيَّامَ الفِتنِ، فأيامُ الفِتنِ أحوجُ ما نَحتاجُ إلى الصبرِ فِيها، فلا يَجرِفْك تيارُ الفتنةِ فتَنقادَ كما انقادَ غيرُك؛ لأنَّ هُناكَ في زمَنِ الفتنِ مَن يَطلبُ مِنك أَنْ تَكونَ معَ أو ضِدَّ، هكَذا حالُ الفِتنِ إمَّا أَنْ تُداهِنَ الظالِمَ، أو أَنْ تَظلمَ غيرَك، ولا يُرضَى لكَ –وللأسفِ– بالاستقامةِ.

لذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الْمُتَمَسِّكُ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ» –فالَّذي يَصبرُ أيَّامَ الفِتنةِ أجرُه كأَجرِ مَن صبَرَ منَ الصحابةِ، بل كأَجرِ خَمسينَ صَحابيٍّ–، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أو مِنْهم؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ»[(٣)].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩٩).

(٢) نسبه أبو تمام في الحماسة لرجل من بني أسد، انظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ص: ١٠٥٧)، وذكره القالي في الأمالي (١/ ١١٣)، وأبو حيان في أخلاق الوزيرين (ص: ٩٢)، غير منسوب.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾، رقم (٤٠١٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديثِ الآخَرِ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ**»[1]؛ فكلَّما أرَدْتَ أَنْ تَتمسَّكَ بدِينِك تَجرفُك الفتنُ.

وانظُرْ إلى عدَدٍ كبيرٍ منَ الناسِ كيفَ تَخلَّى عَن دِينِه وعَنِ المبادئِ الأساسيةِ في دِينِه بسببِ هذهِ الفتنِ وطُغيانِها، فعليكَ بالصَّبرِ والمُصابَرَةِ.

* * *

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، رقم (٢٢٦٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه أحمد (٢/ ٣٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٩)

ميادينُ الصَّبرِ (٣)

فيما مضَى تَحدَّثْنا عَن مَيادينِ الصبرِ، والحديثُ الآنَ عنِ الوسائلِ الَّتي تُعينُ عَلى الصبرِ، فما مِن مَيدانٍ في هَذِه الحياةِ إلَّا وهوَ يَحتاجُ إلى الصبرِ، فما هيَ الوسائلُ الَّتي تُعينُ العبدَ على الصبرِ إذا أخَذَ بِها نالَ هذهِ العِبادةَ، وارتَقَى إلى هذهِ القيمةِ، وتخلَّقَ بهذا الخُلُقِ وهوَ خُلُقُ الصبرِ.

الوَسائلُ المُعِينةُ عَلى الصبرِ كَثيرةٌ، لكِنْ أكتَفي بذِكرِ خمسِ وَسائلَ:

الوَسيلةُ الأُولى: اعلَمْ بحقيقةِ الدُّنْيا، فالعِلمُ بِحقيقةِ الدُّنيا يُعينُ على الصبرِ، إذا أَدرَكَ العبدُ حقيقةَ هَذهِ الدُّنْيا -وأنَّهُ ليسَ لَها بقاءٌ، وأنَّها وما فيها وما علَيْها إلى الفناءِ-، وصلَ إلى مَرتبةِ الصبرِ.

وقَدْ بيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنا في كِتابِه وعَلى لسانِ رسولِه ﷺ حقيقةَ الدُّنْيا، فبمُجرَّدِ أَنْ يَقرأَ الإنسانُ القرآنَ سيَمُرُّ عَلى حقيقةِ الدُّنيا، مِن ذلكَ قولُ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهوَ يُبيِّنُ لَنا مَثَلَ الدُّنْيا، قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

هذهِ حَقيقةُ الدُّنْيا كمَثَلِ هذا الماءِ حينَما يَنزلُ على هذه الأرضِ فتُنبتُ وتَتزخرفُ وتَتَزَيَّنُ ويظنُّ أهلُها أنَّهم قادِرون علَيْها، يَأتي أمرُ اللهِ فتَذهبُ في لَمحِ البصرِ.

فإذا علِمَ العبدُ بحَقيقةِ الدُّنْيا وأنَّها إلى فناءٍ سيَصبِرُ على ما يَفوتُه مِنها، وقد جاءَ عندَ البَيهقيِّ مِن حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ**»(١).

ثلاثُ جملٍ تَختصرُ لكَ كلَّ الحياةِ.

فهَذا الإنسانُ الَّذي يُخاصمُ ويَفجرُ في الخصومةِ لأَجلِ الدُّنيا، وهذا الَّذي يَهجرُ أقربَ الناسِ إليهِ مِن أجلِ الدُّنْيا، وهذا الَّذي يُقاتلُ ويَخسرُ حسناتِه مِن أجلِ الدُّنْيا، هكَذا اختَصَرَها جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في ثَلاثِ جُملٍ: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ**» عِشرينَ، أو مِئةً، أو مِئتينِ، «**فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ**» مِن مالِكَ ومَتاعِك ووَلَدِك وجاهِك وسُلطانِك ومَركزِك ومَنصبِك، «**فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ**» خيرًا كانَ أو شرًّا.

لذا نَظَمَها القائلُ:

لَا تَأْسَفَنَّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ... فَالمَوْتُ لَا شَكَّ يُفْنِينَا وَيُفْنِيهَا

وَمَنْ يَكُنْ هَمُّهُ الدُّنْيَا لِيَجْمَعَهَا ... فَسَوْفَ يَوْمًا عَلَى رُغْمٍ يُخَلِّيهَا

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده رقم (١٨٦٢)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٠٥٧)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

النَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّلامَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

لا دارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ المَوْتِ يَسْكُنَهَا ... إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ المَوْتِ بَانِيهَا

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا[1]

الوسيلةُ الثانيةُ: العلمُ بأنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ، إذا علمَ العبدُ أنَّه وما يملكُ منَ اللهِ، والواهبُ لِما نَملكُ هوَ اللهُ، والمالكُ لِما نَملكُ هوَ اللهُ، وأنَّنا وما نَملكُ راجِعون إلى اللهِ، فإنَّ هَذا يُعينُك على الصبرِ، فإذا صارَ عندَك يَقينٌ بأنَّك وما تَملكُ للهِ، وأنَّك إليهِ راجعٌ، فإنَّ ذلكَ يُعينُك على الصبرِ.

لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فأيُّ مُصيبةٍ، كبيرةً كانَت أو صَغيرةً فإنَّه يُدركُ تمامًا أنَّ الَّذي أُخذَ مِنه إنَّما رجعَ إلى الواهبِ المالكِ سُبحانَه الَّذي أَعطَى، فيصبرُ على فَقْدِ المالِ، ويَصبرُ على فَقْدِ الولدِ ويَصبرُ على فَقْدِ الصحةِ؛ لأَنَّ الَّذي وهبَ استَرَدَّ ما وهَبَ.

قالَتْ أُمُّ المُؤمِنينَ أُمُّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سَمِعَتْ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ اؤْجُرنِي فِي مُصِيبَتِي، وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ وخَلَفَ لَهُ خيرًا مِنْهَا**»[2].

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتابِه الماتعِ «زاد المَعادِ»: «وهَذه الكلمةُ -يَعني: إنَّا

---

(١) انظر: ديوان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص: ٢١٠)، والإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص: ١٧١)، وبستان الواعظين لابن الجوزي (ص: ١٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ- مِن أَبلغِ علاجِ المصابِ وأَنفعِه في عاجلتِه وآجِلتِه»[(١)]؛ إذًا العلمُ بحَقيقةِ الدُّنْيا والعلمُ بأنَّا راجِعونَ إلى اللهِ.

الوسيلةُ الثالِثةُ: إدامةُ النظرِ في خَبرِ وسِيَرِ مَن صبَرَ مِنَ الرسلِ والأنبياءِ، ومَن سارَ على سَيرِهم مِنَ الصالِحينَ والأتقياءِ.

فانظُرْ حولَكَ في صَبرِ الصابِرينَ، وفي صَبرِ الأنبياءِ؛ نوحٍ وهودٍ وعيسَى وأُولي العَزمِ منَ الرسلِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ، وانظُرْ في سِيَرِ الصحابةِ والتابِعينَ، كيفَ صبَروا، وانظُرْ في سِيرِ مَن حولَكَ في مُجتمعِك منَ الصابِرينَ، فإنَّ هذا يُعينُ على الصبرِ.

لِذا أرشدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نبيَّهُ ﷺ أَنْ يَنظرَ في سِيَرِ أولئِكَ، لَـمَّا قصَّ عليهِ سيرةَ نوحٍ في سورةِ هودٍ، وبيَّنَ لهُ المعاناةَ الَّتي عاناها نوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ لهُ في خِتامِ هذهِ القِصةِ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقالَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقالَ لهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

نعَم، اصبِرْ كما صبَرَ الأنبياءُ، واحذَرْ أَنْ تَكونَ كما وقعَ مِن يُونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَما لم يَصبِرْ وضاقَ بقومِه ذَرْعًا، وخرجَ مُغاضبًا دونَ أَنْ يَستأذنَ ربَّه، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وقَدْ أُوذيَ النبيُّ ﷺ في يومٍ منَ الأيامِ بنوعٍ منَ الإيذاءِ الشديدِ على النفسِ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٣).

لو وقعَ علَيْنا ما تحمَّلْناه ولانتَقَمْنا لأنفسِنا، والحديثُ في البخاريِّ مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قسمَ النبيُّ ﷺ قسمةً، وجاءَ لفُلانٍ كَذا ولفلانٍ كَذا ولفُلانٍ كَذا. فقالَ رجلٌ: واللهِ ما أرادَ محمدٌ بهذا وجهَ اللهِ. فبلَغَت مَقالةُ الرجلِ النبيَّ ﷺ، فتَمعَّرَ وجهُه ﷺ، لكنَّه تَمالكَ هَذا الغضبَ، ثُم أخذَ بإرشادِ اللهِ لهُ، قالَ: «رَحِمَ اللهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[(١)].

إذًا مِنَ الأمورِ الَّتي تُعينُ على الصبرِ النظرُ في خبَرِ وسِيَرِ مَن صبَرَ مِنَ الأنبياءِ وأَتباعِهم.

الوسيلةُ الرابعةُ: التصبُّرُ، أي: مُحاولةُ الصبرِ بعدَ الصبرِ مُستعينًا باللهِ؛ لأنَّ الَّذي يَهَبُ الصبرَ هوَ اللهُ.

لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً أَوْسَعَ وَلَا خَيْرًا مِنَ الصَّبْرِ»[(٢)].

فالإنسانُ يَحتاجُ أَنْ يُصبِّرَ نفسَه، والصبرُ ليسَ بالسهلِ، لكِنْ قُلْ كما قالَ الأوَّلُ:

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْمُنَى ... فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه، رقم (٦٠٥٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم (١٤٦٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، رقم (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: شرح الكافية الشافية لابن مالك (٣/ ١٥٤٠)، و مغني اللبيب لابن هشام (١/ ٦٧)، وشرح ابن عقيل (٤/ ٨)، غير منسوب.

الوَسيلةُ الخامِسةُ: اليقينُ بحصولِ الأجرِ، فكلَّما زادَ يَقينُك بحصولِ الأجرِ أُعِنْت على الصبرِ، قالَ النبيُّ ﷺ والحديثُ عندَ أحمدَ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا**»(١).

وقالَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابِه «مَدارِج السالِكينَ»: «ومُلاحظةُ حُسنِ العاقِبةِ تُعينُ على الصبرِ»(٢).

وقَدْ بيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنا العاقبةَ فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١].

وقالَ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

وقالَ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وجاءَ في البخاريِّ مِن حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جاءَتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أُصرعُ وأَتكشَّفُ، فادْعُ اللهَ لي. فقالَ لها النبيُّ ﷺ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ**» هذا اليقينُ بحُصولِ الأجرِ «**وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**»، فقالَتْ بدونِ تَردُّدٍ: أَصبرُ يا رسولَ اللهِ(٣).

معَ ما في الصرَعِ مِن مُعاناةٍ اجتماعيةٍ تُعاني منها في الشارعِ قالَتْ: أَصبرُ يا رسولَ اللهِ، ولكِنِّي أَتكشَّفُ فادْعُ اللهَ ألَّا أَتكشَّفَ. أي: ستَصبرُ على بلاءِ الصرَعِ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح، رقم (٥٦٥٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، رقم (٢٥٧٦).

ولكِنَّها لا تصبِرُ على مُعاناةِ التعرِّي. فدعا اللهَ لها ألَّا تَتكشَّفَ؛ لأنَّها أَيقنَت بحُصولِ الأجرِ وقالَت: أَصبِرُ ما دامَ الأجرُ الجنةَ. قالَتْ ذلكَ ولسانُ حالِها يُردِّدُ سأَصبِرُ حتَّى يَعجزَ الصبرُ عَن صبرِي، وأَصبرُ حتَّى يَحكمَ اللهُ في أَمري، وأصبِرُ حتَّى يَعلمَ الصبرُ أَنَّني صبَرْت على شيءٍ أمرَّ منَ الصبرِ.

✖ ⌑ ✖

(١٠)

كيفَ تَمْحو ذَنبَكَ؟

جاءَ في سُنن ابنِ ماجَهْ مِن حديثِ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[١] أي: كلُّ بَني آدَمَ يقَعُ مِنه الذنبُ والخطيئةُ، فما مِنَّا مِن أحدٍ إلَّا ولهُ ذُنوبٌ، وخَطايا، ولكِنَّ العاقلَ هوَ الَّذي كلَّما أذنَبَ علمَ أنَّ له ربًّا يَغفرُ الذنبَ ويَأخذُ به فيَتوجَّهُ إلى اللهِ بِمَحوِ ذنوبِه.

والعاقلُ هوَ الَّذي يُدركُ هذهِ الحقيقةَ: أنَّ الخطأَ واقعٌ مِنه لا مَحالةَ، ولكِنْ عليهِ أن يَعرفَ طريقَ محوِ الذنوبِ، هوَ جزمًا سيقعُ في الخطَأ أيًّا كانَ حالُه ومَكانتُه، وإن أشارَ الناسُ إليهِ بالبَنانِ بصَلاحِه وتَقواهُ، فهوَ واقعٌ في الخطَأ لا مَحالةَ، لكِنَّ العاقلَ هوَ الَّذي يَتوجَّهُ إلى هذهِ الذنوبِ والخَطايا فيقومُ على مَحوِها.

وقَد جاءَ عندَ الطبَرانيِّ في «مُعجَمه الكبيرِ» مِن حَديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٠٤، رقم ١١٨١٠)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٧٢٢).

وهُناكَ وسائلُ مَن أخَذَ بها غُسِلَ ذنبُه ومُحِيَ، وهيَ كثيرةٌ، أذكرُ مِنها أربعَ وَسائلَ:

الوسيلةُ الأُولى: أن تَدعوَ اللهَ أن يَغفرَ ذَنبَك، وهذا لا يَعيبُك؛ فاعترافُك بالذنبِ، وعِلمُكَ بأنَّ لكَ ربًّا يغفرُ الذنبَ هَذا حريٌّ بأَنْ يُغفرَ ذنبُك، وهَذا هوَ سيرُ الأنبياءِ وطريقُهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولْنَقرَأْ في كتابِ اللهِ ما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن مُناجاتِه أنبياءَهُ ورُسلَه والصالِحينَ:

ففي سُورةِ آلِ عِمرانَ قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾: أي: قولَ الأنبياءِ ومَن تَبِعَهم، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

وفي سُورةِ الأعرافِ بيَّنَ لَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُناجاةَ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ وهو مُوسَى نبيٌّ مِن أُولِي العَزمِ مِنَ الرسلِ ﴿وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وفي أَواخِرِ سورةِ إبراهيمَ بيَّنَ لَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُناجاةَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقالَ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].

وفي سُورةِ «ص» بيَّنَ لَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُناجاةَ سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥].

وفي أَواخِرِ سورةِ نوحٍ بيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُناجاةَ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالَ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ

لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح: ٢٨].

هذا هوَ نهجُ الأنبياءِ يَقولونَ: ربَّنا اغفِرْ لَنا، فكيفَ لا نَقولُ كَما قالوا وربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ في الحديثِ القُدسيِّ مِن حَديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ التِّرمذيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوتَنِي وَرَجَوتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ استَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي»[(١)].

فأينَ مَن يَستغفرُ ويَدعو؟!

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كِتابِه الكَريمِ في سُورةِ النساءِ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: ١١٠].

وجاءَ عندَ مُسلمٍ مِن حَديثِ الأغرِّ المُزنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[(٢)].

فأينَ المُستغفِرونَ؟! وأينَ الَّذينَ يُناجونَ ربَّهم في ساعاتِ الذروةِ، وفي ساعاتِ الإجابةِ؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّهم واقِعون في الخطأ لا مَحالةَ فيَقولونَ: يا ربِّ اغفِرْ لَنا ذُنوبَنا وإسرافَنا في أمرِنا؟!

يَـا رَبِّ إِنْ عَظُمَـتْ ذُنـوبِي كَثْـرَةً ... فَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّ عَفْـوَكَ أَعظَـمُ

إِنْ كَـانَ لَا يَرْجُـوكَ إِلَّا مُحسِـنٌ ... فَمَنِ الَّـذِي يَـدْعُو وَيَرْجُـو الْمُجْـرِمُ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم (٣٥٤٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار، رقم (٢٧٠٢).

أَدْعُـوكَ رَبِّ كَـمَا أَمَـرْتَ تَضَـرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَـدِي فَمَـنْ ذَا يَـرْحَمُ[١]

الوسيلةُ الثانِيةُ: أن نُحافظَ على الصلَواتِ الخمسِ، فالصواتُ الخمسُ تُمحَى بها الذنوبُ.

ولنَشتغِلْ بذُنوبِنا ونَدَعْ ذنوبَ الخلقِ معَ اللهِ، فأداءُ الصلواتِ الخمسِ إحدَى الوسائِلِ الَّتي تُمحَى بِها الذنوبُ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقالَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ مُكفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الكَبَائِرُ**»[٢].

وجاءَ عندَ الطبرانيِّ في «مُعجَمه الكبيرِ»: جلسَ النَّبيُّ ﷺ معَ سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحتَ شَجرةٍ، قالَ سَلمانُ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا يَابِسًا فَهَزَّهُ فَتَحَاتَّ وَرَقُهُ، فَقَالَ: «**يَا سَلْمَانُ، لِمَ لَمْ تَسْأَلْنِي لِمَ فَعَلْتُ ذَلِكَ؟**» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّ هَذَا الوَرَقُ**»، قالَ: ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الآيَاتِ مِنْ سُورَةِ هُودٍ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ

---

(١) الأبيات لأبي نواس، ديوانه (ص: ١٩٩)، وانظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (٣/ ٢٠٦)، وتاريخ بغداد (٨/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، رقم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]»[(١)].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أُتِيَ بِذُنُوبِهِ فَوُضِعَتْ عَلَى رَأْسِهِ أَوْ عَاتِقَيْهِ فَكُلَّمَا رَكَعَ أَوْ سَجَدَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ»[(٢)].

فأينَ العاقلُ الَّذي يَستفيدُ مِن هذا الخيرِ العَظيمِ؟!

وجاءَ عندَ الطبرانيِّ في مُعجمَيهِ الأوسطِ والصغيرِ مِن حديثِ ابنِ مسعودٍ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ» أي: كلَّما أَذنَبْتم فإنَّ لِهَذهِ الذنوبِ آثارًا مُحرقةً، تحرقُ العبدَ في الدُّنْيا والآخرةِ «فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الفَجْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ المَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلَا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا»[(٣)].

إذًا: أَدعو اللهَ بأَنْ يَغفرَ ذَنبي، وأن أُحافظَ على الصلَواتِ الخمسِ.

الوَسيلةُ الثالِثةُ: بِرَّ والِدَيْك، وصِلْ أرحامَك فإنَّ ذلكَ سببٌ ووسيلةٌ في محوِ الذنوبِ.

جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟»، قَالَ: لَا. قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَبِرَّهَا»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٥٧، رقم ٦١٥١).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (١٧٣٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٢٢٢٤)، والصغير رقم (١٢١).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة، رقم (١٩٠٤/ م١) [طبعة بشار].

فإنَّ مِن أوسعِ أبوابِ محوِ الذنوبِ برَّ الوالِدينِ، وصِلةَ الأرحامِ، والخالةُ في مَقامِ الأمِّ.

الوَسيلةُ الرابِعةُ: الصبرُ عَلى المصائبِ، والآلامُ، والأَذَى، والاحتسابُ، وطلبُ الأَجرِ.

جاءَ في حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيِّبِ فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيِّبِ تُزَفْزِفِينَ؟**» -أَيْ: تَرتَعدينَ- قَالَتْ: الحُمَّى لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا. فَقَالَ ﷺ: «**لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**»(١).

وقد جاءَ في صَحيح البُخاريِّ مِن حَديثِ أَبي سَعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلاَ غمٍّ حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كفَّر اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(٢).

فالعاقِلُ هوَ الَّذي يُدركُ أنَّه سيُذنبُ، والراشدُ المستمرُ هوَ الَّذي يَعلمُ أنَّ لهُ ربًّا يَغفرُ الذنبَ، ويَأخذُ به، فيَأخذُ في طريقِ التائِبينَ الْمُستَغفرينَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، رقم (٢٥٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤١- ٥٦٤٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم (٢٥٧٣)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١١)

المُعِينُ عَلى سَلامةِ القَلب

مرَّ بِنا مِن قبلُ أنَّ السلامةَ يومَ القيامةِ لا يَنالُها إلَّا مَن سَلِمَ له قلبُه في الدُّنْيا، فمَنْ أرادَ السَّلامةَ غدًا فلْيَحرِصْ على سَلامةِ قلبِه اليومَ، وهَذا أمرٌ مقرَّرٌ ومؤكدٌ في كِتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فنحنُ نَرى في مُناجاةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧- ٨٩]، فمَنْ سَلِمَ قلبُه في الدُّنْيا سَلِمَ له لقاؤُه برَبِّه يومَ القيامةِ.

وقالَ سُفيانُ بنُ دينارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قُلتُ لأَبي بَشيرٍ» وأبو بَشيرٍ أحدُ أصحابِ أميرِ المُؤمنينَ الخليفةِ الراشدِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «يا أَبا بَشيرٍ، أَخبِرْني عَن أعمالِ مَن كانَ قبلَنا. قالَ: كانوا يَعمَلون يَسيرًا ويُؤجَرون كثيرًا. قالَ سُفيانُ: لِمَ ذاكَ؟ قالَ: لسَلامةِ صُدورِهم»(١).

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ: «دُخِلَ على أَبي دُجانةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهوَ في مرَضِه فإذا بوَجهِه يَتهلَّلُ، قيلَ: يا أَبا دُجَانةَ، ما لِوجهِكَ يَتهلَّلُ؟ قالَ: ما مِن عمَلي شَيءٌ أوثَقُ عِندي مِن اثنتَيْنِ» أي: ليسَ مِن أَعمالي الصالحةِ أَذكرُه في هذا الموقفِ أعظمُ مِن عمَلينِ «أمَّا أحدُهما: فكُنتُ لا أتكلَّمُ فيما لا يَعنيني، وأمَّا الآخَرُ: فكانَ قَلبي سَليمًا للمُسلِمينَ»

(١) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٦٠٠).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٩٤).

هَذا الَّذي يَذكرُه مِن أعمالِه، وهوَ أَوثقُ شَيءٍ عندَه، وما أَحوجَنا اليومَ إلى سلامةِ الصدرِ في زمنٍ كثُرَتْ فيه الشُّبهاتُ، وكثُرَت فيهِ الشهواتُ، وتَداخَلَت فيه المُغرِياتِ، وتَلوَّثَتِ القلوبُ، واتَّسَخَت.

ومِن أَعظمِ ما لوَّثَ القُلوبَ اليومَ ثلاثُ مُلوِّثاتٍ:

المُلوِّثُ الأَولُ: الاستِسلامُ للشَّيْطانِ، والانقِيادُ لهُ، وهَذا أعظمُ الملوِّثاتِ، ومِن بَعدِه تَأتي جميعُ الأوساخِ الَّتي تتَّسخُ بها القلوبُ.

وقَدْ بيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنا في أكثرَ مِن مَوضعٍ في كِتابِه الكريمِ أنَّ الشيطانَ عدوٌّ فاتَّخِذوه عدوًّا، فلا يَكفِي أن نَعرفَ أنَّ الشيطانَ عدوٌّ، بَلْ لا بُدَّ أنَّ نَتخِذَه عَدوًّا، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فإذا لم يَنقَدِ العبدُ لأمرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى انقادَ لأمرِ الشيطانِ، ولا يَنقادُ لأمرِ الشيطانِ إلَّا إذا فتحَ له قلبَه فاستَقرَّ فيهِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النور: ٢١] أي: إن ذهَبَ يَمنةً ذهَبْتُم وراءَه، وإن ذهَبَ شِمالًا ذهَبْتُم وراءَه، فإذا اتَّبَعْنا كانَتِ النتيجةُ ما قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -والأثرُ في مصنَّفِ ابنِ أَبي شَيبةَ-، لَـمَّا جاءَ عندَ قولِ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]: قالَ: «الشَّيطانُ جاثِمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ، فإذا سَها وغفَلَ وَسوسَ، وإذا ذكَرَ اللهَ خنَسَ»[(١)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٩١٩)، وأبو داود في الزهد رقم (٣٣٧).

فهَذا أعظمُ المُلوِّثاتِ: الاستِسلامُ لأمرِ الشيطانِ.

الملوِّثُ الثاني الَّذي إذا دخلَ القلبَ أخرجَ مِنه أعظمَ شيءٍ: الحسدُ، فإذا دخلَ الحسدُ خرجَ الإيمانُ، فلا يَجتمِعانِ في قلبِ مُؤمنٍ، فهوَ مِن أعظمِ الملوِّثاتِ، ولا يكونُ إلَّا بعدَ الاستِسلامِ للشَّيطانِ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»[(١)].

فكلَّما زادَ معدَّلُ الحسدِ في قلبِ العبدِ حُلِقَت أجزاءٌ مِن دِينِه؛ لِهَذا قالَ الحقُّ سُبحانَه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وفي صَحيحِ البُخاريِّ مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ النبيُّ ﷺ يُخاطبُ صَحابتَه الكِرامَ، قالَ: «**إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟**» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ»: أَيْ: سنكونُ كَما أمرَنا اللهُ حامِدينَ شاكِرينَ لنِعَمِه ذاكِرينَ.

قَالَ ﷺ وهو يَعلمُ ما في النفوسِ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؛ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ**»[(٢)]؛ أي: هذا الَّذي سيَحصلُ، وهذا هوَ الواقعُ كلَّما فُتِحَتِ الدُّنْيا على الناسِ تَحاسَدوا وتَنافَسوا وانتَشَرَت بينَهُمُ البغضاءُ والحقدُ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٠)، من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذا الَّذي أخبَرَ بِهِ النبيُّ ﷺ، وهذا الَّذي خشِيَه علَيْنا، فقَدْ قالَ ﷺ: «وَاللهِ، مَا الفقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[(١)].

المُلوِّثُ الثالثُ: إذا استَحوذَ الشيطانُ على القلبِ وحصلَ الحسدُ جاءَ الملوِّثُ الثالثُ وهوَ: حبُّ الأثَرَةِ، وحبُّ الأَنا، وحبُّ الرياسةِ والسيادةِ، وحبُّ إقصاءِ الآخَرينَ، وهَذا مِنَ الملوِّثاتِ الخطيرةِ.

وانظُرْ إلى حالِ الناسِ اليومَ كيفَ يَتحاسَدون، ويَتَنافَسون مُنافسةً غيرَ شَريفةٍ على حُبِّ الرياسةِ والسيادةِ، حتَّى على المناصبِ الدِّينيةِ، واللهِ إنَّهم ليَتحاسَدونَ ويَتباغَضون، ولو مُكِّنَ للناسِ اليومَ أنْ يَتَقاتَلوا لقتَلَ بعضُهم بعضًا على كُرسيٍّ، ولولا أنَّنا في دَولةٍ فيها نظامٌ، وفيها حُكمٌ، وفيها مُؤسَّساتٌ أمنيةٌ لرأَيْنا مَن يَقتلُ على الكُرسيِّ، والمنصِبِ، والجاهِ، ووالله إنَّهُم ليَتَقاتَلون حتَّى عَلى خُطبةِ الجُمعةِ، وعلى إمامةِ المسجدِ؛ والسببُ أنَّه قَد دَخَلَ حُبُّ الأثَرةِ في القُلوبِ.

لذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ وهوَ الَّذي لا يَنطقُ عنِ الهوَى: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ»[(٢)].

نِعم المرضِعةُ؛ لأنَّها تُدرُّ مالًا، فهذه المناصبُ لم تُحبَّ لذاتِها، ولكِن لأنَّها مُرضعةٌ تُدرُّ مالًا، فنِعْمَ المرضعةُ وبِئسَ الفاطمةُ إذا أُخِذَت.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، رقم (٧١٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما مِن أحَدٍ أحَبَّ الرياسةَ إلَّا حَسَدَ وبغَى، وتَتبَّعَ عُيوبَ الناسِ، وكرِهَ أن يُذكرَ أحدٌ بخيرٍ»[(١)]؛ فحتَّى أن يُقالَ: فلانٌ ناجحٌ في حياتِه، وفلانٌ موفَّقٌ في مكانِه الَّذي هوَ فيهِ؛ فإنَّ هذا يُؤلِمُه.

فكيفَ نُطهِّرُ هَذهِ القُلوبَ؟

الجَوابُ: أُوصيكَ بثَلاثةِ أُمورٍ:

الأمرُ الأولُ: لا تَغفَلْ عنِ القرآنِ، اقرَأْهُ في ليلِك ونَهارِك، واجعَلْه لكَ صاحبًا، فإنَّه يَأتي على هذهِ الأوساخِ فيطهِّرُ قلبَك مِنها، هَذا الَّذي قالَه اللهُ الَّذي يَعلمُ ما في هَذه القُلوبِ، فقَدْ قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: القُرآنُ، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ليسَتْ عِلاجًا، فالعلاجُ مَرحلةٌ أُوليةٌ، لكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحدِّثُنا عنِ المرحلةِ النَّهائيةِ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآنُ، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. فعَليكَ بالقُرآنِ.

الأمرُ الثاني: فلأنَّنا نعلمُ أنَّ القلوبَ بيَدِ اللهِ فلْنَدعُ اللهَ أن يُسلِّمَ لَنا قُلوبَنا، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقولُ في صلاتِه كما رَوَى عَنه شدَّادُ بنُ أوسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا**»[(٢)] هَذا وهوَ رسولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر رقم (٩٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٤٠٧)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٤).

وقالَ أيضًا رسولُ اللهِ ﷺ : «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»(١).

وأينَ نحنُ مِن قولِ مَن ذكَرَهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

الأمرُ الثالثُ: أَعرِضْ عَن كلِّ ما تَسمعُ مِمَّا يُؤذيكَ؛ لئَلَّا يَستقرَّ في قلبِك، فإنَّ بعضَ هذهِ الكلِماتِ تُثيرُ في النفسِ الحسدَ، والحقدَ، والبَغضاءَ، وتُثيرُ في النفسِ أشياءَ وأشياءَ، فأَعرِضْ عمَّا تَسمعُ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقالَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سَمِعْت الكلِمةَ تُؤذيكَ فطَأْطِئْ لَها حتَّى تَتخطَّاكَ»(٢)؛ أي: إذا سَمِعْت الكلمةَ كأنَّها سَهمٌ، وقذيفةٌ، أو كأَنَّها شَيءٌ محَسوسٌ فأعرِضْ عَنها حتَّى تَتخطَّاكَ.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ١٤٠).

(١٢)

المُكرَّمونَ في الآخِرةِ

النفسُ البشَريةُ تُحبُّ التكريمَ، وتَسعَى إليهِ جاهِدةً؛ لِتَنالَه بحقٍّ أو بغَيرِ حقٍّ، والإنسانُ بطَبعِه وعلى اختلافِ مَكانِه ومَكانتِه يُحبُّ أن يُكرَّمَ، ويُحبُّ أن يقِفَ في صفوفِ المُكرَّمينَ، وأن يُنادَى عليهِ أمامَ الملَأ بأحبِّ أسمائِه وأَلقابِه، وأن يَصعدَ منصةَ التكريمِ، ويَنالَ الأَوسَمةَ وما حَسُنَ منَ النَّياشينِ، فهَذا طبعٌ في الإنسانِ.

لكِنْ هَذا لا يَتأَتَّى للجميعِ، ولا يَنالُه الجميعُ؛ فإذا فاتَكَ التكريمُ في الدُّنْيا، فاعلَمْ أنَّه لم يَفُتْك شيءٌ، ولا يَفوتُك التكريمُ في الآخِرةِ، فالتَّكريمُ تكريمُ الآخِرةِ حينَما يُكرمُك خالقُك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هوَ التكريمُ الَّذي ليسَ بعدَه تكريمٌ، وهَذا الَّذي يَنبَغي أن تَتطلَّعَ إليهِ النفوسُ، وهَذا الَّذي يُتحسَّرُ على فواتِه وفَقدِه.

لِذا فحَديثي عَنِ «**المُكرَّمين في الآخِرةِ**»، وهُم أصنافٌ كثيرةٌ، أذكُرُ مِنها:

الصِّنف الأوَّل: أهلَ «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، وأنتَ حينَما اصطَفاكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وجعَلَك مِن أهلِ «لا إلهَ إلَّا اللهُ» فهَذِه أعظمُ النِّعمِ، وأهلُ «لا إلهَ إلَّا اللهُ» يُكرَّمون يومَ القِيامةِ.

فقَدْ جاءَ مِن حَديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عُمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ**» أي: سيَختصُّ «**رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ**

القِيَامَةِ» -والخلائقُ ليسَتْ أُلوفًا، ولا مَلايينَ، ولا مِلياراتٍ، بَلْ هيَ أعدادٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، قَدْ خرَجوا للتوِّ مِن قُبورِهم، وهُم يُشاهِدون هولَ المَطلَعِ، ويَقِفون في ذهولٍ وخوفٍ، فيُنادَى على هذا الإنسانِ باسمِه واسمِ أبيهِ كما جاءَ في رِوايةِ ابنِ ماجَهْ، قالَ: «فيُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤوسِ الخَلائِقِ» الكلُّ يُشاهدُ مَشهدَ التكريمِ، يَأتي فيَقِفُ بينَ يدَيِ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «فَيُنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا» أي: كتابًا، دُوِّنَ في هذا الكتابِ كلُّ عمَلٍ قامَ بِه، «كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّي. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيُقَالُ لَهُ: احْضُرْ وَزْنَكَ» أي: اذهَبْ عندَ الميزانِ، واحضُرْ وَزنَك، فيَأتي عندَ كِفَّتي الميزانِ يَنظرُ، ثُم قالَ: «يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ. قَالَ: فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[1].

فهكذا يُكرَّمُ أهلُ «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، الَّذينَ جعَلوا مِنها مَنهجَ حَياةٍ، عاشوا علَيْها، فباعوا واشتَرَوْا علَيْها، وتَعاهَدوا وتَعاقَدوا علَيْها، وماتوا علَيْها، وهمُ الَّذينَ يَنتفِعون

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم (٤٣٠٠).

بها، ويُكرَّمون يومَ القيامةِ، ولكِنْ لِنَنْتبهَ! كَمْ مِن قائلٍ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» لَنْ يَحظَى بهذا التكريمِ، ولَنْ يَنفعَه هذا التكريمُ في ذلكَ اليومِ؛ لأنَّه لم يَستفِدْ مِنها كالمُنافِقينَ.

فقَدْ قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ المُنافِقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقيلَ لوهبِ بنِ مُنبِّهٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أليسَ لا إلهَ إلَّا اللهُ مِفتاحُ الجَنةِ؟ قالَ: بَلَى، ولكِنْ ما مِن مِفتاحٍ إلَّا وله أَسنانٌ. فإنْ جِئتَ بمِفتاحٍ له أسنانٌ فُتِحَ لكَ، وإلَّا لم يُفتَحْ لكَ، وأسنانُ لا إلهَ إلَّا اللهُ شُروطُها، فإذا قُلتَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ فأْتِ بشُروطِها، وإنَّ مِن أعظمِ شُروطِها: اليقينَ أنَّك على الحقِّ المُبينِ»[(١)].

وإنَّ مِمَّا يُؤلِمُ أن تَرى منَ الناسِ مَن يَقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، وهوَ في شكٍّ مِنها، ويقولُ: واللهِ لا أَدرِي أَنحنُ عَلى حقٍّ أَمْ غيرُنا؟

ونُشاهدُ بعضَ نَماذجِهم في الخامسِ والعِشرينَ مِن شهرِ دِيسمبرَ؛ حينَما تبدَأُ احتِفالاتُ النَّصارى بأعيادِ دِينِهم، فيُشارِكُهم بعضُ مَن يَقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ». يُشارِكُهم وهو يقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ولكِنَّه يَعيشُ في تَناقُضٍ، هوَ يقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ». ويُشاركُ مَن يَقولُ ومَن أَخبرَ اللهُ عنهُ أنَّه كُفرٌ بـ«لا إلهَ إلَّا اللهُ»، أمَا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فكيفَ تَقولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ». وتُشاركُ هَؤلاءِ الَّذينَ كفَروا باللهِ في أعيادِهم؟ وتَطرَبُ لأعيادِهم، وتَرقصُ فيها، وتُهنِّئُهم على أعيادِهم، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: ﴿وَقَالَتِ

---

(١) علقه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجنائز، (٢/ ٧١)، ووصله في التاريخ الكبير (١/ ٩٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٦٦).

﴿ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠].

إنَّهم يَقولونَ: إنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثةٍ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقولُ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣] هذا تَناقضٌ، فإذا قُلتَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» فأَبشِرْ إذا قُلتَها بحقٍّ، وحَييتَ علَيْها ومُتَّ علَيْها.

الصِّنف الثَّاني: أهلُ القرآنِ، فإنَّ الَّذي صاحَبَ القُرآنَ مُصاحبةً دائِمةً، حتَّى صارَ مِن أهلِ القُرآنِ، يقولُ عَنهُ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ. قِيلَ: مَنْ أَهْلُ الله مِنْهُمْ؟ قَالَ: أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ الله وخَاصَّتُهُ**»(١).

وانظُرْ إلى تَكريمِ أهلِ القُرآنِ كيفَ يَكونُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ والحديثُ عندَ أحمدَ: «**وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ**» ولكَ أن تَتصوَّرَ هذا الموقفَ والقبورُ تُبعثَرُ والناسُ يَخرُجون مِن هذهِ القُبورِ حُفاةً عُراةً، كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣] «**فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ. فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ! الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ**»؛ ثُم قالَ ﷺ -والناسُ تَنظرُ-: «**فَيُعْطَى**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٧)، وابن ماجه: في مقدمة السنن، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٢١٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ، وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا»[(١)].

فهوَ في صُعودٍ ما دامَ يَقرَأُ هذَّا كانَ أو ترتيلًا، فأيُّ كَرامةٍ أعظمُ مِن ذلكَ؟!

بل قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ في هذا المشهدِ -مَشهدِ التَّكريمِ-: «يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ» أي: حَلِّه بحُللِ الإيمانِ والكرامةِ، «فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ. فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ. فَيَرْضَى عَنْهُ، ثم يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»[(٢)].

الصِّنف الثَّالِث: أهلُ العَفوِ، فأهلُ العَفوِ الَّذينَ يَكونونَ قادِرينَ على أَنْ يُنفِذوا غضَبَهم وغيظَهم ولكِنَّهم يَعفُون، فهَولاءِ يُكرَّمون يومَ القيامةِ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ يُنَادِيهِ بِاسْمِهِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْحُورِ العِينِ مَا شَاءَ»[(٣)].

الصِّنف الرَّابِع: المُتواضِعونَ، فإنَّهم يُكرَّمون يومَ القيامةِ عَلى رُؤوسِ الخلائِقِ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن حَديثِ سَهلِ بنِ مُعاذِ بنِ أنسٍ الجُهنيِّ، عَن أبيهِ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، رقم (٣٧٨١)، من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، رقم (٢٩١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من كظم غيظا، رقم (٤٧٧٧)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب في كظم الغيظ، رقم (٢٠٢١)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحلم، رقم (٤١٨٦)، من حديث معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لله دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»[١].

هذا المُتواضعُ الَّذي كانَتْ عندَه أَدواتٌ لو تَكبَّرَ بِها لكانَ مُمكِنًا؛ فَقَد كانَ عندَه مِنَ المالِ واللِّباسِ ما يَستطيعُ التكبُّرَ بِهِ، لكِنَّه تركَ الكِبرَ وتواضَعَ للهِ، يُدعَى يومَ القيامةِ ليَختارَ هوَ وِسَامَه ووِشاحَه، ويَختارَ ما يُكرَّمُ بِه؛ حتَّى يُخَيِّرَه اللهُ مِن أيِّ حُلَلِ الإيمانِ شاءَ يَلبسُها.

والمتواضعُ ليسَ هَذا الَّذي نَكَّسَ رأسَه وتَباطَأَ في مِشيتِه، فقَدْ قيلَ للفُضيلِ بنِ عِياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَنِ المُتواضِعِ؟ قالَ: «الَّذي يَخضعُ للحقِّ، ويَنقادُ لهُ، ويَقبَلُه مِمَّن قالَه»[٢]. فهذا هوَ المُتواضِعُ، الَّذي لا يُكابِرُ.

وقيلَ لأحَدِ الحُكماءِ: مَنِ المُتواضعُ؟ قالَ: «إذا رأَيْت مَن هوَ أكبرُ مِنكَ، فقُلْ في نَفسِك: هذا سبَقَني إلى العملِ الصالِحِ، فهوَ خيرٌ منِّي، وإذا رأَيْت مَن هو أَصغَرُ مِنكَ فقُلْ: هَذا سبَقْتُه إلى السيئاتِ والذنوبِ، فأَنا شرٌّ مِنهُ»[٣].

وقد قالَ القائلُ في المُتواضعِ، الَّذي لا يَرَى لنَفسِه عَلى الآخَرينَ شيئًا:

تَواضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِناظِرٍ عَلَى صَفَحاتِ الماءِ وَهْوَ رَفيعُ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب منه، رقم (٢٤٨١).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٧٨٩٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم رقم (٦٤٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/ ٤١٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مداراة الناس رقم (٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٢٦)، عن بكر بن عبد الله المزني.

ولا تَـكُ كالـدُّخانِ يَرْفَـعُ نَفْسَـهُ إِلَى طَبَقـاتِ الجَـوِّ وَهْـوَ وَضـيعُ[(١)]

فالَّذي يَرتفعُ بغَيرِ شيءٍ دُخَانٌ، لكِنْ كُنْ كالنجمِ هوَ في السَّماءِ، لكِنْ تَراهُ الأَعينُ على صفحاتِ الماءِ.

هذهِ بعضُ أصنافِ المُكرَّمينَ يومَ القيامةِ، جعلَنا اللهُ وإيَّاكم مِن أهلِ هذا التَّكريمِ.

* * *

(١) البيتان نسبهما الصفدي في أعيان العصر (٥/ ٤٧٩)، والحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (٦/ ١٤٣)، لموسى بن علي ضياء الدين القطبي.

(١٣)

صدَقاتٌ مِن نَوعٍ آخَرَ

جاءَ في مُسنَد الإمامِ أحمدَ مِن حَديثِ أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجُلًا دخلَ المسجدَ وقَدْ صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ بأَصحابِه، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَتَصَدَّقُ عَلَى هَذَا فَيُصَلِّيَ مَعَهُ؟» قالَ: فقامَ رجُلٌ مِنَ القومِ فصلَّى معَه[1].

وهَذا حديثٌ عظيمٌ فيهِ مِنَ الفوائدِ الشيءُ الكثيرُ، وفيهِ فائدةٌ واحدةٌ أقِفُ عندَها، ألَا وهيَ أنَّ للصدَقاتِ أنواعًا، فحَديثي الآنَ عَن صدَقاتٍ مِن نوعٍ آخرَ. هذا الرجلُ دخلَ المسجدَ وقد فرَغَ النبيُّ ﷺ مِنَ الصلاةِ ففاتَتْه صلاةُ الجَماعةِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ يَتَصَدَّقْ عَلَى هَذَا فَيُصَلِّي مَعَهُ؟» فجعلَ هذا المعروفَ، وهذا الإحسانَ مِن جُملةِ الصدَقاتِ الَّتي يُتقرَّبُ بها إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إنَّ النبيَّ ﷺ يُريدُ أن يُربِّيَ الأُمةَ على أنَّ هُناكَ صدَقاتٍ غيرَ دفعِ المالِ، وإنَّما هُناكَ أبوابٌ منَ الصدَقاتِ؛ لأنَّه يُدرِكُ حَقيقةَ المُجتمع، ففي المجتمعِ مِن لا يَملكُ المالَ، ورُبَّما مَن لا يَملكُ الطعامَ واللباسَ، ويَسمعُ بأحاديثِ الصدقاتِ وأجرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الجمع في المسجد مرتين، رقم (٥٧٤)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الجماعة في مسجد قد صلي فيه مرة، رقم (٢٢٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُتصدِّقينَ فتَتوقُ نَفسُه للصدَقةِ، فبيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ هُناكَ أبوابًا مِن الصدَقاتِ، وقد حصَرَها ﷺ في حديثٍ عظيمٍ حينَما قالَ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»(١).

فكلُّ أمرٍ أمَرَ اللهُ تَعالى بِه مِنَ الخيرِ فهوَ صدَقةٌ، إذا أتاهُ العبدُ وهوَ يَحتسبُ ذلكَ، وقبلَ أن أُعدِّدَ بعضَ هذهِ الصدَقاتِ أَذكرُ أجرًا واحِدًا مِن أجورِ الصدَقاتِ، ووالله لو لم يكُنْ إلَّا هذا الحديثُ لكَفَى، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ القُبُورِ، وَإِنَّمَا يَسْتَظِلُّ المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ»(٢).

فمحرومٌ هَذا الَّذي تَعدَّدَت له أبوابُ الصدَقاتِ فلم يَتصدَّقْ، ومِسكينٌ هَذا الَّذي فُتِحَت له هذهِ الأبوابُ مِنَ الصدَقاتِ فلم يَلِجْ واحِدًا مِنها.

فهُناكَ أبوابٌ مِنَ الصدَقاتِ مِن نوعٍ آخرَ، مِن ذلكَ:

البابُ الأوَّلُ: الزراعةُ، فهذا الزرعُ إذا زرَعْتَه وأنتَ تَحتسبُ أجرَه فإنَّه مِن الصدَقاتِ، فقَدْ جاءَ مِن حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ مُسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْه لَه صَدَقَةً، ومَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْه فَهُوَ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم (٦٠٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦، رقم ٧٨٨)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم (١٥٥٢/ ٧).

كلُّ ما أُخِذَ مِن هَذا الزرعِ برِضاكَ، أم بغَيرِ رِضاكَ، كالَّذي يَسرقُ مِن زَرعِك، أو هذه العَوائفِ الَّتي تَأكلُ؛ كالسباعِ والطيورِ والبَهائمِ، أو ما يَنقصُ مِنه ولا يَرزؤُه أحَدٌ إلَّا كانَ له صدَقةً، فأيُّ نَقصٍ يَأتي على هذا الزرعِ فهُوَ لكَ صدَقةٌ، فهَلْ يُفوِّتُ الإنسانُ هَذا البابَ والنبيُّ ﷺ يقولُ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»[(١)]؛ وما ذلكَ إلَّا لعِظمِ شأنِ هذِهِ الزراعةِ.

فكيفَ إذا تَعاهَدْتَ ما زرَعَ والدَك؛ لأنَّ الأجرَ يَبقَى ما بقِيَ هذا الزرعُ، فلو بقِيَ هذا الزرعُ عشَراتِ السنينَ وأنتَ تَتعاهَدُه لاستمرَّ الأجرُ لوالِدِك، ولأخَذْت مثلَه مِن الأُجورِ.

البابُ الثاني: سَقيُ الماءِ، وهذا مِن أعظمِ الصدَقاتِ، فقَدْ جاءَ عندَ النَّسائيِّ مِن حَديثِ سعدِ بنِ عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ أُمِّي ماتَت أَفأَتَصَدّقُ عَنها؟ فقالَ ﷺ: «نَعَمْ» قالَ: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، فأيُّ الصدَقةِ أفضلُ؟ قالَ: «سَقْيُ المَاءِ»[(٢)].

فسقيُ الماءِ بابٌ مِن أبوابِ الصدَقاتِ العَظيمةِ، فلو جعَلتَ في إحدَى زَوايا بيتِك ماءً سبيلًا، أو شارَكْت إخوانَك مِمَّن يُحضِرون الماءَ إلى المساجِدِ، أو إلى المقابِرِ، أو في أماكنِ اجتِماعِ الناسِ، فإنَّ ذلكَ مِنَ الصدَقاتِ العَظيمةِ، بل هيَ مِن أفضلِ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٤- ٢٨٥)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب في فضل سقي الماء، رقم (١٦٨١)، والنسائي: كتاب الوصايا، باب ذكر الاختلاف على سفيان، رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل صدقة الماء، رقم (٣٦٨٤).

الصدَقاتِ، أو حفَرْتَ بئرًا لكَ أو لوالِدِك أو لوالِدتِك أو لأحدِ أقاربِك، فإنَّ هَذا يَستمرُّ أجرُه ما استمَرَّ تَدفُّقُ هَذا الماءِ.

البابُ الثالثُ: رَكعَتا الضُّحَى، فهُما مِن أعظمِ الصدَقاتِ وقد غفَلَ عَنهما بعضُ الناسِ، فقَدْ جاءَ عندَ ابنِ حِبَّانَ في صَحيحه، مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ بُريدةَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فِي الإِنْسَانِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مِفْصَلًا، عَلَى كُلِّ مِفْصَلٍ مِنْهَا صَدَقَةٌ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تُنَحِّي الأَذَى، وَإِلَّا فَرَكْعَتَي الضُّحَى**»[(١)].

فتصوَّرْ هذا الإنسانَ الَّذي يُحافظُ كلَّ يومٍ على ركعتَينِ أو أكثرَ؛ فإنَّه يَتصدَّقُ عَن هذهِ المفاصلِ كلِّها بهذهِ الصدَقاتِ.

النوعُ الرابعُ: الكلِمةُ الطيِّبةُ، وهيَ ليسَت مالًا يُبذلُ ولا عَطاءً يُمدُّ، إنَّما هيَ كلِمةٌ، فقَدْ جاءَ عندَ مُسلِمٍ في صَحيحِه مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»[(٢)].

فتَصوَّرْ هذا الكلامَ الطيِّبَ الَّذي تَقولُه وأنتَ في بيتِك، أو وأنتَ في الشارِعِ، أو وأنتَ في المسجِدِ، أو معَ زُملائِك، وتقولُه في حالِ غضَبِك ورِضاكَ، كلُّ ذلكَ مِنَ الصدَقاتِ.

---

(١) أخرجه البزار في المسند (١٠/ ٣٠٠، رقم ٤٤١٧)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٥٤٠)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم (٢٩٨٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

البابُ الخامِسُ: إن عجَزْت عنِ الكلامِ الطيِّبِ، فهُناكَ بابٌ آخَرُ مِنَ الصدَقاتِ، إنَّه إلقاءُ السَّلامِ، فقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ وهوَ يَفتحُ لَنا هذا البابَ الآخَرَ: «**إِنَّ سَلَامَكَ عَلَى عِبَادِ اللهِ صَدَقَةٌ**»(١).

فإنْ عجَزْت عنِ الكلمةِ الطيِّبةِ فلا تَعجِزْ عنِ السَّلامِ.

البابُ السادِسُ: إن عجَزْت عنِ الكلامِ الطيِّبِ، وعجَزْت عنِ السلامِ، فلا تَعجِزْ عنِ التبسُّمِ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**»(٢).

فقد تَجِدُ جهدًا لتَتكلَّمَ بالكلِمةِ الطيِّبةِ، وقد تَتعبُ مِن أن تَرفعَ يدَيْك وتَقولَ: السلامُ علَيْكم، فهَلْ تتعبُ أن تَتبسِمَ؟!

البابُ السابعُ: إن عجَزْت عنِ الكلامِ الطيِّبِ، وعجَزْت عن بَذلِ السلامِ، وعجَزْت عنِ الابتسامِ فلا تَعجِزْ أن تَكفَّ شرَّك عنِ الناسِ، فكَفُّ شرِّك عَنِ الناسِ صدقةٌ تتصدقُ بها على نَفسِك، فقَدْ جاءَ في حديثِ سَعيدِ بنِ أَبي بُرْدةَ عَن أَبيهِ عَن جدِّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**». قِيلَ: أَرَأَيْت إنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**». قَالَ: أَفرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ**». قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَفرَأَيْت إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَوِ الخَيْرِ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّه صَدَقَةٌ عَلَيْهِ**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، رقم (١٩٥٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة، رقم (١٤٤٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٨).

وفي روايةِ أَبي ذَرٍّ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّها صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»[(١)].

والبعضُ قد يَعجزُ أن يَكسبَ صدَقاتٍ وحسَناتٍ مِن هذا البابِ -بابِ كفِّ الشرِّ عنِ الناسِ- وانظُرْ إلى حالِ الناسِ كَمْ يَتأذَّى بعضُهم مِن أذَى فلانٍ، ووالله إنَّ البعضَ قد يُؤذِي أهلَه في بَيتِه، فيُؤذِي زَوجتَه، وأولادَه، أو رُبَّما آذَتْ زوجَها وأولادَها، كَمْ خسِرَتْ منَ الأجرِ هَذه أو ذاكَ؟!

أو هَذا الَّذي يُؤذِي الناسَ في طُرقاتِهم، ورُبما امتدَّ الأذَى إلى المسجدِ، فهُناكَ مَن يُؤذِي الناسَ في مَساجِدِهم، ووالله إنَّ البعضَ لَيَأتي يَشتكي ويقولُ: فلانٌ آذانا حتَّى في المسجدِ، فنَقولُ لهُ: كُفَّ أذاكَ وشرَّك عنِ الناسِ؛ فإنَّها صدَقةٌ منكَ على نَفسِك. وأبوابُ الصدَقاتِ كثيرةٌ، ولكِنْ لسانُ حالِها يقولُ: أينَ المشمِّرُ نحوَها؟

البابُ الثامنُ: ولِهذا البابِ قِصةٌ، فقَدْ جاءَ في صَحيحِ مُسلمٍ مِن حَديثِ أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا مِن فُقراءِ الصحابةِ جاؤُوا إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا رَسولَ اللهِ ذهَبَ أهلُ الدُّثورِ بالأُجورِ، يُصلُّون كما نُصلِّي، ويَصومونَ كما نَصومُ، ويَتصدَّقون بفضولِ أموالِهم ولا نَجدُ ما نَتصدَّقُ بِهِ.

فقالَ لَهُمُ النبيُّ ﷺ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ، إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، رقم (٢٥١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦).

إنَّ الذِّكرَ بابٌ مِن أبوابِ الصدَقاتِ عظيمٌ، فأينَ الذاكرُ؟ وأينَ الباحثُ عَن هَذه الصدَقاتِ؟ فدونَكَ هذا البابُ الَّذي لا يَأخذُ مِنكَ جهدًا وبذلًا وعطاءً، وإنَّما تَستطيعُه وأنتَ على فراشِك، أو في مجَلسِك وعلى هَيئتِك، فتكونُ مِمَّن يُفتحُ له هَذا البابُ العَظيمُ بذِكرِك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

* ☐ *

(١٤)

أدبُ التاجِرِ

أباحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبادِه التجارةَ، وجعَلَها نوعًا مِن أنواعِ التكسُّبِ وطلبِ الرِّزقِ، وقَدْ مهَّدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبادِه سُبُلَ طلَبِ الرِّزقِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

ولا يجلسِ الإنسانُ في بيتِه ويَقولُ: «اللهُمَّ ارزُقْني»، بل يَسعَى في تَطْلابِ رِزقِه، كما رُوِيَ عن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَما قالَ: «لا يَقعدُ أحدُكم عَن طلبِ الرزقِ، ثُم يَقولُ: اللهُمَّ ارزُقْني، فقَدْ علِمْتم أنَّ السماءَ لا تُمطرُ ذهَبًا ولا فِضةً»[(١)].

فطلبُ الرزقِ لا بُدَّ لهُ منَ السعيِ، كما قالَ الأوَّلُ:

أَلَمْ تَـــرَ أَنَّ اللهَ قَـــالَ لِمَـــرْيَمٍ ... وَهُزِي إِلَيْكِ الجِزْعُ يَسْقُطْ لَكِ الرُّطَبْ

وَلَـوْ شَـاءَ أَنْ تَجْنِيـهِ مِـنْ غَـيْرِ هَزِّهَـا ... جَنَتْهُ، وَلَكِـنْ كُـلُّ شَيْءٍ لَـهُ سَـبَبْ[(٢)]

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٦٢).

(٢) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص: ٢٦٩)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٢٧٢)، غير منسوب.

وجلسَ النبيُّ ﷺ والصحابةُ حولَه، فإذا برجُلٍ له هِمَّةٌ، وعليهِ نشاطٌ، فقالَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُو فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُو فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِياءً ومُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ»[(١)].

فجعلَ النبيُّ ﷺ العبدَ إذا خرَجَ يطلبُ رزقَه في تِجارةٍ أو في غيرِها؛ ليُعِفَّ نفسَه ومَن يَعولُ، فهوَ في سَبيلِ اللهِ.

ولكِنْ أخبَرَنا النبيُّ ﷺ أنَّ في آخِرِ الزمانِ، وعلامةً مِن عَلاماتِ الساعةِ أن تَفشوَ التجارةُ، وتَتكاثرَ[(٢)]، وهذا ما نُشاهِدُه اليومَ مِن فُشوِّ التجارةِ، فأَصبَحَتِ التجارةُ اليومَ ليسَتْ هيَ كالأمسِ، بل أَصبَحَت في مُتناوِلِ الجَميعِ، فأنتَ تَغيبُ عَن حيٍّ منَ الأحياءِ ثُم تَعودُ إليهِ بعدَ أيامٍ، فإذا بهذِهِ المَحلاتِ تَملأُ هَذا المكانَ.

وأَصبَحَت التجارةُ عبرَ هذهِ التِّقنيةِ في هذه التطبيقاتِ الذكِيَّةِ، وأصبَحت هذهِ المجمعاتُ الكَبيرةُ، وهَذا كلُّه مِن فُشوِّ التجارةِ، فأصبَحَ لا يَخلو بيتٌ مِن تاجرٍ؛ حتَّى دخَلَتِ التجارةُ في البيوتِ، فأخذَ الناسُ يَبيعون ويَشتَرون مِن خِلالِ بُيوتِهم، وهَذا أمرٌ ليسَ بالمذمومِ، وحينَما أقولُ: إنَّ هَذا مِن علاماتِ الساعةِ فهَذا ليسَ فيه ذمٌّ، بَلْ قد قيلَ سابِقًا: إنَّ تِسعةَ أعشارِ الرِّزقِ في التجارةِ. والتجارةُ أمرٌ محمودٌ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ١٢٩، رقم ٢٨٢)، وفي الأوسط رقم (٦٨٣٥)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب البيوع، باب التجارة، رقم (٤٤٥٦)، من حديث عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكِنْ لا بدَّ لِمَن يُريدُ التجارةَ، ويأخذَ سبيلَها ، لا بُدَّ أن يَعرفَ أنَّ للتجارةِ آدابًا جاءَت بِها الشريعةُ الغرَّاءُ، وقد أكَّدَ الصحابةُ على ذلكَ، فقَدْ رُويَ عَن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قالَ: «لا يَبِعْ في سُوقِنا إلَّا مَن قد تَفقَّهَ في الدِّينِ»[(١)].

وصارَ على هذا النهجِ الخليفةُ الراشدُ عَليُّ بنُ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيُروَى عنهُ أنَّه قالَ: «مَنِ اتَّجَرَ قبلَ أن يَتفقَّهَ، ارتطَمَ في الرِّبا، ثُم ارتطمَ، ثُم ارتطمَ»[(٢)]؛ أي: وقعَ وارتبَكَ. فإذا أرادَ العبدُ أن يُتاجرَ، فلا بُدَّ أن يَتأدَّبَ بآدابِ التجارةِ، وهيَ كثيرةٌ جدًّا، أُوجزُها في هَذهِ الآدابِ:

الأدبُ الأوَّلُ: مَن أرادَ أن يُتاجرَ فلْيَكُنْ صادقًا في قولِه، وفي تَوصيفِه لِبضاعتِه، فلا يَكذِبُ، ولا يَغدرُ، ولا يَخدَعُ، ولا يَغشُّ، فإذا كانَ صادقًا فقَدْ قالَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما جاءَ في حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عندَ ابنِ ماجَهْ: «**التَّاجِرُ الأَمِينُ الصَّدُوقُ الْمُسلِمُ مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٣)].

بَلْ خرجَ النبيُّ ﷺ في يومٍ منَ الأيامِ إلى السُّوقِ، والتجارُ فيه يَبيعونَ ويَشترَون، والحديثُ عِندَ ابنِ ماجَهْ، فقالَ: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ**»، قالَ: فلَمَّا رَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ وَمدُّوا أعْنَاقَهُمْ قَالَ: «**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فُجَّارًا، إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٨٧).

(٢) تنبيه الغافلين لأبي الليث السمرقندي (ص: ٣٦٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، رقم (٢١٣٩).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار، رقم (١٢١٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب التوقي في التجارة، رقم (٢١٤٦)، من حديث رفاعة بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاءَ عندَ البُخاريِّ، مِن حَديثِ حَكيمِ بنِ حزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ النبيُّ ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»[(١)].

فيقابلُ الصدقُ الكذبَ، ورُبما حلفَ على بضاعةٍ وهو يَكذبُ، ويقولُ: أُعطِيت فيها كَذا، أو قد سِيمَت مِنِّي بكَذا، أو كلَّفَتْني كَذا، أوِ اشتَرَيْتُها بكَذا. وهوَ يكذبُ، وهذا أمرٌ خطيرٌ، وهو كبيرةٌ مِن كبائرِ الذنوبِ.

وجاءَ في حديثِ أَبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قَامَ أَبُو ذَرٍّ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[(٢)].

فمَنْ أرادَ أن يدخلَ في التجارةِ، فعليهِ أن يَكونَ صادِقًا في جميعِ شأنِه.

الأدبُ الثاني: سلامةُ الصدرِ للمُشتري، ولقَرينِك الَّذي بجانبِكَ منَ الباعةِ، ونَعلمُ أنَّ بلادًا كثيرةً مِن بلادِ المسلِمينَ دخَلَها الإسلامُ؛ بسببِ سلامةِ صدرِ تُجارِ المسلِمينَ.

وقالَ النبيُّ ﷺ في حديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ مُسلمٍ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا»، والنجشُ: نوعٌ مِن أنواعِ البُيوعِ المَنهيِّ عَنها «وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما، رقم (٢٠٧٩)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦).

تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا». ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مِرَاتٍ ﷺ، ثُم قالَ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»(١).

يوجهُ رسالةً للتاجرِ، ويقولُ: التاجرُ الَّذي بجانبِك، أو هَذا المشترِي الَّذي يَأتيك كما أنَّ دمَه حرامٌ، فمالُه وعِرضُه حرامٌ.

الأدبُ الثالثُ: السماحةُ، فيكونُ التاجرُ سَمحًا في بيعِه وشِرائِه، وإذا اقتَضَى أموالَه الَّتي عندَ الآخَرينَ، ويكونُ أيضًا سمحًا معَ المُعسِرين.

فقَد جاءَ عندَ البخاريِّ مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»(٢).

فإذا وجدَ مُعسرًا تسامحَ وسمحَ لهُ، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠- ٢٨١].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا. قَالَ: فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، رقم (٢٠٧٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أنظر معسرا، رقم (٢٠٧٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، رقم (١٥٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بل جاءَ الترغيبُ في ذلكَ عندَ مسلمٍ، مِن حديثِ أَبي قَتادةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»[١]. فهذا منَ السماحةِ.

الأدبُ الرابعُ: الواقعيةُ في التجارةِ والطلبِ، فكُنْ واقعيًّا وأنتَ تتاجِرُ، ولا تَدخُلْ مِن بابِ التجارةِ اليومَ وتَرجو أن تَكونَ في الغدِ أحدَ أغنياءِ العالَمِ، فتتنازلَ عنِ المبادئِ، وتَدوسَ على الثوابتِ، وتتسلقَ القيَمَ، وتَرتكبَ الحرامَ؛ فقَدْ جاءَ عندَ الطبرانيِّ في «مُعجَمه الكبيرِ» مِن حديثِ أَبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «نَفَثَ رُوحَ القُدُسِ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[٢].

فتجنَّبْ أن تَتقحَّمَ الحرامَ، فتُنبتَ جسدَك وجسَدَ أبنائِك على الحرامِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[٣].

الأدبُ الخامسُ: تطهيرُ المالِ، فمالُ التجارةِ لا بدَّ أن يُطهَّرَ، وتَطهيرُه يكونُ بالزكاةِ والصدَقاتِ، فإنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقد خرَجَ النبيُّ ﷺ على التجارِ يومًا فقالَ: «يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ هَذَا البَيْعَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، رقم (١٥٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٦٦، رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٧)، والبيهقي في الشعب رقم (٥٣٧٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَحْضُرُهُ الحَلِفُ والكَذِبُ، فَشُوبُوا بَيْعَكُمْ بِالصَّدَقَةِ»[1].

الأدبُ السادسُ: عليكَ أيُّها التاجرُ ألَّا تَغفلَ عنِ الآخرةِ، فإن كانَتْ عينُك تُراقبُ بضاعتَك، فاجعَلْ العينَ الأُخرَى تُراقبُ يومَ القيامةِ، كَما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٣٧- ٣٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٦)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في التجارة يخالطها الحلف واللغو، رقم (٣٣٢٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار، رقم (١٢٠٨)، والنسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب في الحلف والكذب لمن لم يعتقد اليمين بقلبه، رقم (٣٧٩٧)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب التوقي في التجارة، رقم (٢١٤٥)، من حديث قيس بن أبي غرزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٥)

فضائلُ أذكارِ الصَّلاةِ

التجارةُ معَ اللهِ أعظمُ تِجارةٍ، ولها صُورٌ مُتعدِّدةٌ، وأعظمُ هَذهِ الصورِ: ذِكرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهُوَ التجارةُ العُظمَى، وهو عبادةٌ هيَ الأيسرُ والأسهلُ، ولكِنَّها الأكثرُ أجرًا، وقَدْ أمرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذِكرِه فقالَ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

بَلْ أمرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإكثارِ مِن ذِكرِه، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١- ٤٢].

بَلْ أمرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإكثارِ مِن ذِكرِه في أصعبِ المواقفِ؛ عندَ ملاقاةِ العَدوِّ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقَد وعَدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادَه المُكثِرين مِن ذِكرِه بالأجرِ العظيمِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ووعدَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالفلاحِ، فقالَ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

والذاكِرونَ اللهَ كثيرًا هم السابِقون؛ كما أخبَرَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَما قالَ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[(١)].

وما مِن عِبادةٍ شرَعَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلَّا شُرِعَت لإقامةِ ذِكرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومِن ذلكَ: الصلاةُ؛ فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرَعَ هذهِ الصلاةَ الَّتي نُؤدِّيها لإقامةِ ذِكرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤].

وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وأذكارُ الصلاةِ كثيرةٌ جدًّا، الَّتي قبلَها، وفي أثنائِها، وبعدَها، وفضائلُ هذهِ الأذكارِ كثيرةٌ، مِنها:

الأولُ: جاءَ عندَ أَبي داودَ في سُننِه، مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا دخلَ المسجدَ قالَ: «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، وقالَ ﷺ: « مَنْ قَالَ هَذَا الدُّعَاءَ عِنْدَ دُخُولِهِ الْمَسْجِدَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، رقم (٤٦٦).

فحينَما تردَّدَ هذا الذِّكرُ وأنتَ تستحضرُ هذا الأجرَ تُحفَظُ مِن عدوِّك الَّذي أخبَرَك اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنَّه عَدوُّك.

الثاني: إذا شَرَعْت في الصلاةِ وكبَّرْت، فقَدْ جاءَ في «صَحيح مُسلم» مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «بينَما نَحنُ نُصلِّي معَ النبيّ ﷺ قالَ رجُلٌ: اللهُ أكبَرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسُبحانَ اللهِ بُكرةً وأصيلًا، فلمَّا فرغَ النبيُّ ﷺ مِن صلاتِه، التَفَتَ قائلًا: «**مَنِ القَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟**»، فقالَ رجلٌ منَ القومِ: أنا يا رسولَ اللهِ. قالَ ﷺ: «**عَجِبْتُ لَهَا! فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ**». قالَ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فما تَركْتُهنَّ منذُ سمِعْت رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ ذلكَ[(١)].

انظُرْ إلى التأسِّي! فالقضيةُ ليسَتْ قضيةَ زيادةِ مَعلوماتٍ؛ بل كانوا إذا سمِعوا طبَّقوا.

الثالثُ: الاستعاذةُ باللهِ أثناءَ الصلاةِ. فهَذا الدعاءُ طاردٌ لوسوسةِ الشيطانِ، فهَذا الَّذي يَشتكي مِن وَسوسةِ الشيطانِ ويَقولُ: أُكبِّرُ ولا أَدري ماذا قُلتُ وماذا قرَأَ الإمامُ. نقولُ لهُ: خُذْ هذا الدعاءَ، فقَدْ جاءَ عُثمانُ بنُ أَبي العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ الشيطانَ حالَ بَيني وبينَ صلاتِي وقِراءَتي يُلبِّسُها عليَّ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»، فقالَ عُثمانُ: ففعَلْتُ ذلكَ فأَذْهَبَه اللهُ عنِّي[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٦٠١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا نوعٌ ثالثٌ منَ الأدعيةِ.

الرابعُ: وهوَ دعاءٌ يسيرٌ، لكِنَّ أجرَه عظيمٌ، كلِماتُه مَعدودةٌ جدًّا، ومعَ ذلكَ هُناكَ مَن يَعجزُ ويتقاعسُ عَنها، جاءَ في «صَحيح البُخارِيِّ» وفي غيرِه، مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا**» أي: أَمِّنوا معَه، لا تُسابقوهُ ولا تَتأخَّروا عنهُ «**فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[(١)].

ورُبَّما يعجزُ بعضُنا عَن هذا الدعاءِ اليسيرِ.

الخامسُ: الرفعُ مِنَ الركوعِ، فقَدْ جاءَ عندَ النَّسائيِّ في «سُننه» مِن حَديثِ رفاعةَ بنِ رافعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كُنَّا نُصلِّي معَ النبيِّ ﷺ فلَمَّا رفعَ رأسَه منَ الركعةِ، قالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» فَقَالَ رَجُلٌ وَرَاءَه: رَبَّنَا ولَكَ الحمْد، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيهِ. قالَ: فلَمَّا انصرَفَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن صلاتِه، قالَ: «**أَيْنَ المُتَكَلِّمُ آنِفًا؟**» قالَ: أَنا يا رسولَ اللهِ. قالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلًا**»[(٢)].

السادسُ: ما يُقالُ بعدَ الصلاةِ، بعضُنا إذا سلَّمَ مِن صَلاتِه فرَّ منَ المسجدِ، فيُقالُ لهُ: انتظِرْ خمسَ دقائقَ؛ ردِّدْ فيها هذا الذِّكرَ. وإنِّي لأَستغربُ مِن إنسانٍ ليسَ وراءَه ما يُسرعُه يُفوِّتُ على نَفسِه هَذا الأجرَ! ودَعْكَ مِن مُراقبةِ الآخَرينَ، وراقِبْ نفسَك: أينَ أنتَ مِن هَذا الذِّكرِ وغيرِه منَ الأذكارِ؟!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب جهر الإمام بالتأمين، رقم (٧٨٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد والتأمين، رقم (٤١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم (٧٩٩)، والنسائي: كتاب التطبيق، باب ما يقول المأموم، رقم (١٠٦٢).

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ مسلمٍ والحديثُ صَحيحٌ: «مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ المِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»[١].

كذلكَ إذا قرَأَ آيةَ الكُرسيِّ، فقَدْ جاءَ في حديثِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ، فَإِذَا مَاتَ دَخَلَ الجَنَّةَ»[٢].

أليسَتْ أعظمَ تِجارةٍ؟!

بلَى؛ إنَّها التجارةُ الرابحةُ ذِكرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وخاصَّةً في موضعِ الصلاةِ.

وهُناكَ أيضًا ذكرٌ يقالُ بعدَ الصلاةِ، وهوَ مَخصوصٌ بصَلاةِ الفجرِ وصلاةِ المغربِ، وهوَ التهليلُ بعدَ صلاةِ المغربِ وبعدَ صلاةِ الفجرِ، وقَدْ رتَّبَ الخالقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهِ أجرًا عظيمًا، جاءَ في حديثِ مُعاذِ بنِ جبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاةِ الغَدَاةِ» -يَعني: الفجرَ بعدَ أن يُسلِّمَ- «قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ» -وفي رِوايةٍ: «قَبْلَ أَنْ يُثْنِيَ رِجْلَيْهِ»[٣] وهَذا خاصٌّ بالمأمومِ، أمَّا الإمامُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٢١)، من حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه النسائي في الكبرى رقم (٩٨٤٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرج هذه الرواية الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٨٠، رقم ٨٠٧٥)، وفي الأوسط رقم (٧٢٠٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (١٤٢)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلهُ أن يُثنِيَ رِجلَيْه ويَستقبلَ المصلِّينَ؛ فهذهِ هيَ السُّنةُ في حقِّه، ثُمَّ قالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، بِيَدِهِ الْخَيْرِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. عَشْرَ مَرَّاتٍ، أُعْطِيَ بِهِنَّ سَبْعًا: كُتِبَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ بِهِنَّ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ بِهِنَّ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكُنَّ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ نَسَمَاتٍ» أي: كأنَّه أَعتقَ عَشرَ نَسَماتٍ، «وَكُنَّ لَهُ حَافِظًا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَحِرْزًا مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَلَمْ يَلْحَقْهُ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ ذَنْبٌ إِلَّا الشِّرْكَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يَنْصَرِفُ مِنَ الْمَغْرِبِ أُعْطِيَ مِثْلَ ذَلِكَ لَيْلَتَهُ»[1].

فأينَ هَؤلاءِ الَّذينَ يُسرِعون بعدَ أن يَفرَغوا مِن صَلاتِهم مِن هَذا الذِّكرِ العظيمِ؟! إنَّها عَطايا المنعِمِ، فأينَ مَن يُشَمِّرُ لهذا العطاءِ؟!

✖ ⌑ ✖

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (٩٨٧٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٦٥، رقم ١١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (١٤٠).

(١٦)

إعاقةُ قَلبٍ

كما أنَّ هَذهِ الأبدانَ تَمرضُ وتُصابُ بالعاهاتِ والإعاقاتِ؛ فكَذلِكَ القلوبُ تَمرضُ وتُصابُ بالعاهاتِ والإعاقاتِ، وقَدْ أخبرَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مواضعَ مُتعدِّدةٍ مِن كتابِه أنَّ هذهِ القلوبَ تَمرضُ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

والخطورةُ أنَّ هذهِ القلوبَ إذا مرِضَت، مرِضَت الجوارحُ تبَعًا لمَرَضِها، وإذا أُعيقَت هذهِ القلوبُ أُعيقَت هذه الجوارحُ تبعًا لإعاقتِها، وقد أخبرَ بذلكَ رَسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[(١)].

لذا كانَ ﷺ يَدعو ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على الدوامِ، فيَقولُ: «وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٤٠٧)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٤)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولَمَّا جاءَه الصحابيُّ الجليلُ يَسألُه يَقولُ: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني دُعاءً؟ قالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِن شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي»(١).

فهذهِ القلوبُ قد تُصابُ بالإعاقةِ، فقَدْ يَكونُ هناكَ قلبٌ مُعاقٌ، وإنَّ أبرزَ مَظاهرِ إعاقةِ القلوبِ: الكسلُ عنِ الطاعةِ، فقَدْ يفعلُ الإنسانُ الطاعةَ ولكِنْ بكَسَلٍ، وهذا الكسلُ يَجرُّه يومًا إلى تركِ العملِ، والكسلُ صِفةٌ مِن صِفاتِ المنافِقينَ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]؛ لِذا فأعمالُهم مَردودةٌ علَيْهم، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أواخرِ سُورةِ التوبةِ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

وجاءَ في حَديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «صلَّى بِنا رَسولُ ﷺ الصبحَ يومًا، فقالَ: «أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟» قالوا: لا. قالَ: «أَشَاهِدٌ فُلَانٌ؟» قالوا: لا. قالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ» أي: الفجرَ والعشاءَ «أَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكَبِ»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٩)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٥١)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٩٢)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر السمع والبصر، رقم (٥٤٤٤)، من حديث شكل بن حميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في فضل صلاة الجماعة، رقم (٥٥٤)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب الجماعة إذا كانوا اثنين، رقم (٨٤٣).

وإعاقةُ القلبِ مرَضٌ، وما مِن مرَضٍ إلَّا ولهُ سببٌ، وهُناكَ ثلاثةُ أسبابٍ إذا أُبتلِيَ بها العبدُ أُصيبَ قلبُه بالإعاقةِ:

السببُ الأوَّلُ: ارتِكابُ الذنوبِ والمعاصِي؛ فكلَّما أذنبَ العبدُ تَسبَّبَ في إعاقةِ قلبِه، فتكاسلَ عنِ الطاعةِ، وهيَ أبرزُ أمراضِ القُلوبِ وإعاقتِها، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ مِن أن يَتكاسَلَ العبدُ عنِ الطاعةِ؟! وهذا بسببِ أيدِينا.

وقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ**» أي: تَقولُ: هَذا ذنبٌ صغيرٌ، وهذا ذنبٌ صغيرٌ، وهذا ذنبٌ صغيرٌ «**فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**»[(١)].

وجاءَ رجلٌ إلى الحسنِ البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقالَ: «يا أَبا سعيدٍ، إِنِّي أَبيتُ معافًى، وأحبُّ قيامَ الليلِ، وأعدُّ طهوري، فما بالي لا أقومُ؟» قال: «ذنوبُك قيدَتْكَ»[(٢)].

لذا قالَ سُفيانُ الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مَن هوَ في العِلمِ والزهدِ والورعِ: «حُرِمْتُ قيامَ الليلِ خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنَبْتُه» قيلَ لهُ: وما هوَ؟ قالَ: «رأيتُ رجلًا يَبكي، فقلتُ في نَفسِي: هذا مراءٍ»[(٣)].

فكيفَ بِنا ونحنُ نَتكلَّمُ في الملَأ، ونتَّهمُ الآخَرينَ ونُصنِّفُهم؟! لا نَتكلَّمُ في

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٧٥)، وإحياء علوم الدين (١/ ٣٥٦).

(٣) قوت القلوب (١/ ٧٥)، وحلية الأولياء (٧/ ١٧)، وإحياء علوم الدين (١/ ٣٥٦).

مجلسٍ، أو في سُوقٍ، إنَّما نَتكلَّمُ في هذهِ الوسائلِ الَّتي انتشَرَت في أيدِي الناسِ وتَصلُ إلى الملايينِ مِنهم، نَقولُ: فلانٌ مُراءٍ، وفلانٌ كذَّابٌ، وفلانٌ فيه كَذا وكَذا؟!

نعَم، الذنبُ يُكسِلُ عنِ الطاعةِ، ويعيقُ القلبَ، وما أجملَ كلامَ ابنِ القيِّم! قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه «الجواب الكافي» قالَ: «ومِن عُقوباتِها» أي: عقوباتِ المعاصِي «أنَّها تُضعفُ سَيرَ القلبِ إلى اللهِ والدارِ الآخرةِ، أو تَعوقُه، أو تُوقفُه وتَقطعُه عنِ السيرِ، فلا تَدَعُه يَخطو إلى اللهِ خُطوةً». والاحتِمالُ الرابعُ قالَ: «هَذا إن لم تَرُدَّه عَن وِجهتِه إلى ورائِه؛ فالذنبُ يَحجبُ الواصلَ، ويقطعُ السائرَ، ويُنكِّسُ الطالبَ»[(١)].

لذا قالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا لم تَقدِرْ على قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ؛ فاعلَمْ أنَّك محرومٌ مكَبَّلٌ، كبَّلَتْك خَطيئتُك»[(٢)].

ودلَّ على ذلكَ آيةٌ عَظيمةٌ في سُورةِ البقرةِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: واحدةً. ونَعلمُ أنَّ السيئةَ تَأتي بسَيئةٍ أُخرى إذا لم يَتُبْ منها الإنسانُ، والثانيةُ تَأتي بثالِثةٍ، والثالثةُ تَأتي برابِعةٍ، حتَّى تُكبِّلَ صاحبَها ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

هذا السببُ الأولُ مِن أسبابِ إعاقةِ القلوبِ.

السببُ الثاني: الجهلُ بثوابِ الأعمالِ، فالعبدُ إذا لم يَستحضِرْ أجرَ العملِ لم ينشَطْ للعملِ، وهذا الَّذي قرَّرَه ابنُ الجَوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه «صِفة الصَّفْوة» حينَما قالَ: «مَنْ لم يَعرِفْ ثوابَ الأعمالِ ثَقُلَت عليهِ في جميعِ الأحوالِ»[(٣)].

---

(١) الجواب الكافي (ص: ١٧٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٦).

(٣) صفة الصفوة (١/ ٥٠٤).

على سَبيلِ المثالِ: إذا لم تَكُنْ تعرفُ ثوابَ برِّ الوالِدينِ، فستُقصِّرُ في هذا الجانبِ؛ وقد جاءَ معاويةُ بنُ جاهمةَ السُّلميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كُنتُ أَرَدْت الجهادَ معَكَ أَبتغِي وجهَ اللهِ والدارَ الآخِرةَ. قالَ: «وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟» قلتُ: نعَمْ يا رسولَ اللهِ. قالَ: «ارْجِعْ فَبَرَّهَا»، قالَ: فأَتيتُه مِنَ الجانبِ الثاني، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ أَرَدْتُ الجهادَ معَك أَبتغِي بذلكَ وجهَ اللهِ والدارَ الآخرةَ. قالَ: «وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟» قلتُ: نعَمْ يا رسولَ اللهِ. قالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَبِرَّهَا» قالَ: فأتيتُه مِن أمامِه، فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كُنتُ أَرَدْتُ الجهادَ معَكَ أَبتغِي بذلكَ وجهَ اللهِ والدارَ الآخرةَ. قالَ: «وَيْحَكَ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ؟» قلتُ: نعَمْ يا رسولَ اللهِ. قالَ: «الزَمْ رِجْلَيْهَا! فَثَمَّ الجَنَّةُ»[١].

هذا وهوَ يريدُ الجهادَ ذروةَ سنامِ الإسلامِ، لا يُريدُ أن يَخرجَ في رحلةٍ ويَتركَ والدَيْهِ!، بل هناكَ مَن تَسألُه عَن حالِ والدِه فيَقولُ: واللهِ لم أرَ والِدي مُنذُ أيامٍ. فإن قُلتَ: كيفَ ذلكَ؟ قالَ: إذا دخَلْتُ أنا خرَجَ هوَ بالمصادَفةِ!.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ عَنِ الوالِدِ: «الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ البَابَ أَوِ احْفَظْهُ»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٩)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، رقم (٣١٠٤)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرجل يغزو وله أبوان، رقم (٢٧٨١)، من حديث معاوية بن جاهمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين، رقم (١٩٠٠)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب بر الوالدين، رقم (٣٦٦٣)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فُتِّحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[١].

لكِنَّ الَّذي لا يعرفُ ثوابَ الأعمالِ ثَقُلَت عليه في جميعِ الأحوالِ.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ عَن سدِّ فُرجةٍ في الصفِّ، مِن حَديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ سَدَّ فُرْجَةً فِي صَفٍّ رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ»[٢].

وقالَ ﷺ أيضًا عَن سُورةِ الكهفِ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الكَهْفِ» يَعني: يومَ الجُمعةِ «كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ، مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ»[٣]، ونحنُ في حاجةٍ إلى النورِ يومَ القيامةِ.

وقالَ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ»[٤].

لذا إذا أَرَدْتَ أن تَتعافَى مِن إعاقةِ القلوبِ فاستَحضِرْ أجرَ العملِ، الَّذي يُنشطُك ويُبعدُ عنكَ الكسَلَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٥٧٩٧). وأخرج بعضه أحمد (٦/ ٨٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب إقامة الصفوف، رقم (٩٩٥).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (١٠٧٢٢)، والطبراني في المعجم الأوسط رقم (١٤٥٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السببُ الثالثُ: الغَفلةُ عَن ذِكرِ الموتِ، فبعضُ الناسِ لا يحبُّ ذِكرَ الموتِ، وبعضُهم إذا قُلْنا لهُ: أكثِرْ مِن ذِكرِ الموتِ. تَصوَّرَ أنَّه يُرادُ مِنه أن يَعتزلَ الناسَ، ويَقبعَ في إحدَى زَوايا بيتِه أو مَسجدِه، لا، إنَّما أكثِرْ مِن ذِكْرِ الموتِ وأنتَ معَ الناسِ؛ في مَعمَلِك أو مِهنتِك، وأنتَ تُخالطُ أهلَكَ وأصهارَكَ وأنسابَكَ؛ حتَّى تُحسِنَ العملَ والمعاملةَ.

والنبيُّ ﷺ لَمَّا أمَرَنا بالإكثارِ مِن ذِكرِ الموتِ؛ حتَّى نُحسِنَ، ونَنشطَ في العبادةِ، قالَ: «**اذْكُرِ المَوْتَ فِي صَلَاتِكَ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ المَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ**»(١).

فإنَّ العبدَ إذا جعلَ الموتَ حاضِرًا أمامَه نشِطَ في العبادةِ وَتَلذَّذَ بِها، ولم يُفرِّطْ فيها، ولم يَتكاسَلْ عَنها.

إذَنْ: هيَ هَذه الأسبابُ الثلاثةُ، وعلاجُ هذهِ القلوبِ بتَجنُّبِ هذهِ الأسبابِ الَّتي ذَكَرْتُ.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير رقم (٥٢٧)، والديلمي كما في الفردوس رقم (١٧٥٥)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(١٧)

إفاقةُ قَلبٍ

تَحدَّثْنا فيما مضَى تحتَ عُنوانِ «إعاقةُ قلبٍ»، وتَحدَّثْنا عَن أبرزِ مَظاهرِ إعاقةِ القُلوبِ، وهيَ الكسلُ عنِ الطاعةِ، وحديثُنا الآنَ يُقابِلُ هذا العنوانَ تَحتَ عُنوانِ «إفاقةُ قلبٍ»؛ فقُلوبُنا بينَ الإعاقةِ والإفاقةِ.

وقَدْ بيَّنَ لَنا النبيُّ ﷺ في حديثٍ عظيمٍ جاءَ عندَ الطبرانيِّ في «مُعجَمه الأوسطِ» حديثِ أميرِ المُؤمنينَ عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بيَّنَ أنَّ هذهِ القلوبَ بينَ إفاقةٍ وإعاقةٍ، فقالَ ﷺ: «**مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَمَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ**»[(١)].

أرأيتَ القمَرَ حينَما تَعلوهُ سَحابةٌ كيفَ يُظلِمُ؟! فإذا تجلَّتْ هذهِ السَّحابةُ كيفَ يُضيءُ؟!

كذلكَ هذهِ القلوبُ بينَ ظلمةٍ وإضاءةٍ -أي: إعاقةٍ وإفاقةٍ- وكلَّما أفاقَ القلبُ أبصَرَ طريقَه إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فجاءَهُ مُنيبًا تائبًا، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣١- ٣٥].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٥٢٢٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٩٦).

وما أجمَلَ ما ذكَرَه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابه «الفوائد» حينَما قالَ: «والقلبُ يَمرضُ كَما يَمرضُ البدَنُ، وشِفاؤُه في التوبةِ والحميةِ، ويصدَأُ كما تصدَأُ المرآةُ - أي: يَتَّسِخُ- وجلاؤُه الذِّكرُ، ويعرَى كما يَعرَى الجسمُ، وزينتُه التَّقوَى، ويجوعُ ويَظمأُ كما يجوعُ البدَنُ، وطعامُه وشرابُه المعرفةُ والمحبةُ والتوكُّلُ والإنابةُ»[(١)].

قالَ أحدُ الصالِحِينَ: «حرَسْتُ قَلْبي عِشرينَ سَنةً، ثمَّ حرَسَني قَلبي عِشرينَ سَنةً، ثمَّ ورَدَت عليَّ وعليهِ حالةٌ صِرْنا مَحروسينَ جميعًا»[(٢)].

والعاقلُ الراشدُ هوَ الَّذي يَستمرُّ في إنعاشِ قَلبِه حتَّى يُفيقَ مِن إعاقتِه، فهوَ في صباحِه ومَسائِه يُمارسُ أحوالًا في إنعاشِ هذا القلبِ، فبِحَياتِه يحيَا العبدُ، وبإعاقتِه أو موتِه يَموتُ العبدُ، وهُناكَ أربعُ علاماتٍ مِن علاماتِ إفاقةِ القلبِ، فإذا أرَدْت أن تَعرفَ هل قلبُك معاقٌ، أو يَعيشُ في حالةِ إفاقةٍ، فانظُرْ إلى هذهِ العلاماتِ:

العَلامةُ الأُولى: أنَّ القلبَ يُقبِلُ على الطاعةِ قبلَ البدنِ؛ لأنَّ العبرةَ بِما في القلبِ لا بِما في البدنِ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «رَكعتانِ مُقتَصِدتانِ في تَفكُّرٍ خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ»[(٣)].

وانظُرْ إلى ثَمرةِ القلبِ إذا أقبلَ على الطاعةِ قبلَ البدنِ في حَديثينِ عَظيمينِ: الأولُ لعُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والثاني لأَبي أُمامةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكِلا الحَديثينِ في صَحيح مُسلمٍ،

---

(١) الفوائد (ص: ٩٨).

(٢) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ١٠٦)، وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٣١٢)، من كلام أبي حفص النيسابوري.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٩٧، رقم ٢٨٨)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٤٤).

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حَديثِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[١].

وفي حَديثِ أَبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثمرةُ أعظمُ مِن ذلكَ، وهوَ حَديثٌ طويلٌ، والشاهدُ فيه آخرُ الحديثِ، وهوَ أيضًا في صَحيح مُسلمٍ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٢].

وهذا بصَلاةٍ واحدةٍ أقبَلَ عليها بقلبِهِ وقد فرَّغَ هذا القلبَ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إذًا: العَلامةُ الأُولى مِن عَلاماتِ إفاقةِ القلبِ أنَّه يُقبِلُ على الطاعةِ، أي: يُقبِلُ بقَلبِه على الطاعةِ قبلَ البدَنِ.

العلامةُ الثانيةُ: السَّعيُ الحثيثُ في تَنظيفِ القلبِ، فلا يَفترُ أبدًا مِن تَنظيفِ قلبِه مِن هَذهِ الملوِّثاتِ: الشركِ، والنفاقِ، والبدَعِ، والشهواتِ، والشبهاتِ، والأخلاقِ الرديئةِ، والحِقدِ، والحسدِ، والغلِّ، ويَعملُ على ذلكَ.

قالَ سَلمانُ الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلِمةً مَشهورةً وعَظيمةً؛ قالَ: «لِكُلِّ امرئٍ جوانيّ وبرانيّ -أي: له باطنٌ وظاهرٌ- فمَن أصلَحَ جوانِيَّه أصلَحَ اللهُ برَّانِيَّه، ومَن أفسدَ جُوانِيَّه أفسدَ اللهُ برَّانيَّه»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم (٨٣٢).

(٣) أخرجه أبو داود في الزهد رقم (٢٥٩).

لذا فالَّذي يَقومُ على إصلاحِ قلبِه هوَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ أفضلُ الناسِ، فعلَيْنا أن نَشتغلَ بقُلوبِنا قبلَ أن نَشتغلَ بقُلوبِ الآخَرينَ، فالإشكالُ الكبيرُ أنَّنا نَصرفُ جهدًا ووقتًا كبيرًا في تصنيفِ قلوبِ الآخَرينَ، ونقولُ: هذا صادِقٌ، وهذا كاذِبٌ، ولَيْتَنا صَرَفْنا هذه الأوقاتَ في إصلاحِ قلوبِنا.

وقد جاءَ عندَ ابنِ ماجَهْ، مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُئلَ رسولُ اللهِ ﷺ: يا رَسولَ اللهِ، مَن أفضلُ الناسِ؟ قالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ؛ صدوقُ اللسانِ نَعرفُه، فما مَخمومُ القلبِ؟! قالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»(١).

يعملُ ليلَ نهارٍ في إصلاحِ هذا القلبِ وتَصفيتِه، وتَنقيتِه مِن هَذهِ الأخلاطِ، وهَذهِ علامةٌ ثانيةٌ على إفاقةِ القلبِ.

العلامةُ الثالِثةُ: أنَّه دائمُ السؤالِ لِمَولاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُصلحَ له قَلبَه؛ لأنَّه يَعلمُ أنَّ قلوبَ العبادِ بينَ إصبعينِ مِن أصابعِ الرحمنِ، فمَن شاءَ أقامَ قلبَه، ومَن شاءَ أَزاغَه، فهوَ دائمُ السؤالِ يَقولُ: يا اللهُ أصلِحْ لي قَلْبي.

وقالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا سُمِّيَ القَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ**»(٢).

وقالَ ﷺ: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ** -أَيْ: يَبْلَى- **فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (٤٢١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/ ٣٦ - ٣٧، رقم ٨٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لذا كانَ مِن دعاءِ الصالِحِينَ الخيِّرِينَ: «ربَّنا لا تُزِغ قلوبَنا بعدَ إِذْ هَدَيْتَنا»، وكانَ مِن دُعائِهم أيضًا: «ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا غِلًّا للذينَ آمَنوا».

وكانَ مِن دعاءِ النبيِّ ﷺ بل كانَ مِن أكثَرِ ما كانَ يَدعو، كما جاءَ عِندَ الترمذيِّ في حَديثِ أُمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١)، هذا وهوَ رسولُ اللهِ ﷺ.

بَلْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ في أحاديثَ كَثيرةٍ يَدعو بسَلامةِ قَلبِه، فتارةً يقولُ: «**وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا**»(٢)، وتارةً يَقولُ: «**وَاهْدِ قَلْبِي**»(٣)، وثالثةً يقولُ: «**وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**»(٤)، ورابعةً يقولُ: «**اللَّهُمَ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا**»(٥)، وخامسةً وسادِسةً يقولُ: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي قَلْبِي**»(٦)، «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا**»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٤٠٧)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٤)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، رقم (١٥١٠)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٥١)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) الحديث السابق.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٦٩٩)، من حديث رفاعة الزرقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أورده ابن الأثير في جامع الأصول رقم (٢٢٧٧)، من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومكان العزو بياض بالأصل.

(٧) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، رقم (٦٣١٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٦٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهكَذا كانَ كثيرًا ما يَدعو ﷺ بصلاحِ قَلبِه، حتَّى قالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَرِّدْ قَلْبِي بِالثَّلْجِ وَالبَرَدِ وَالمَاءِ البَارِدِ، اللَّهُمَّ نَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ»(١)، هذه علامةٌ ثالثةٌ على إفاقةِ قلبِ صاحِبِه.

العلامةُ الرابعةُ: أنَّه يَستأنسُ بذِكرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا وجَدْت في قلبِك هَذهِ العلامةَ فاعلَمْ أنَّك تَعيشُ وقلبُك قد أَفاقَ، وسلِمَ منَ الإعاقةِ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الحجِّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤- ٣٥].

بخلافِ الَّذينَ قد أَصابَت قلوبَهُمُ الإعاقةُ يَشمئِزُّون مِن ذِكرِ اللهِ، وقد قالَ اللهُ عَنْهم في سُورةِ الزمرِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

فهوَ يَستأنسُ بذِكرِ اللهِ، دائمُ الاستغفارِ؛ لأنَّ الاستغفارَ يُنظِّفُ القلوبَ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ»(٢)؛ أي: تَم تَنظيفُه؛ لهذا لَمَّا جاءَ رجلٌ للحسَنِ البصريِّ قالَ: يا أبا سَعيدٍ أَشكو قسوةَ قَلْبي. قالَ: أَذِبْه بالذِّكْرِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٧)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، رقم (٣٣٣٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «الفوائد»: «اطلُبْ قَلبَك في ثَلاثةِ مَواطِنَ: عندَ سَماعِ القُرآنِ، وفي مَجالسِ الذِّكْرِ، وفي أوقاتِ الخلواتِ، فإن لم تَجِدْه فسَلِ اللهَ أن يَمُنَّ عليكَ بقَلبٍ فإنَّه لا قَلبَ لكَ»(١).

(١) الفوائد (ص: ١٤٨- ١٤٩).

(١٨)

اللَّهُمَّ بارِكْ لَنا في نِعَمِنا

ليسَ العبرةُ بكَثرةِ العطاءِ والمِنَحِ والنِّعَمِ، ولكِنَّ العِبرةَ أن يُبارَكَ لكَ في هذا العطاءِ، وهذهِ المنَحِ والنِّعَمِ، فالعطاءُ إذا لم يكُنْ فيه برَكةٌ كانَ نِقمةً على صاحِبِه، ووفرةُ النعَمِ والمنَحِ إن لم يكُنْ فيها برَكةٌ كانَت محِنًا على صاحبِها.

لذا نَجِدُ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ كثيرًا ما يَدعو بالبرَكةِ، ويَسألُ ربَّه حلولَ البرَكةِ في جَميعِ النعَمِ، فإنَّها إن لم يكُنْ فيها بركةٌ تُحالُ إلى نِقَمٍ، دقَّتْ هذهِ النِّعمُ أو عظُمَت، فَنجدُه ﷺ يَدعو قائلًا: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وبَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا ويَمَنِنَا»[(١)]، وفي حَديثٍ آخرَ يَقولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعَنَا وَمُدِّنَا، وَاجْعَلْ مَعَ البَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ»[(٢)].

ويُعلِّمُهم أن يَقولوا: «وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُلُوبِنَا، وَأَزْوَاجِنَا، وَذُرِّيَّاتِنَا»[(٣)]؛ لأنَّه إذا لم تكُنْ هُناكَ بركةٌ في الأسماعِ والأبصارِ والقلوبِ والأزواجِ والذُّرِّيَّاتِ تَحوَّلَت هذه إلى نِقَمٍ، وتَحوَّلَت على العبدِ إلى محِنٍ؛ حتَّى وإن كثُرت، فقد

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٤)، والبخاري: كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل، برقم (١٠٣٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة، رقم (١٣٧٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب التشهد، رقم (٩٦٩)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يكثُرُ المالُ في يدِ العبدِ، لكِنَّه إذا كانَ بغيرِ بَرَكةٍ كانَ نارًا وشَنارًا وعارًا عليهِ.

والأولادُ قد يكثُرُ عددُهم، فإذا لم يكُنْ فيهِم بَرَكةٌ تَحوَّلوا إلى عذابٍ، أمَّا البَرَكةُ إذا حلَّت في شيءٍ فليُبشَّرْ صاحِبُها بكلِّ خيرٍ، حتَّى وإن قلَّ المالُ، لكِنْ هناكَ بَرَكةٌ تُنعمُ صاحبَها، وقد لا يَكونُ لكَ مِن الأولادِ إلَّا واحدٌ أوِ اثنانِ، لكِنْ فيهِمُ البركةُ، فيسعدُ صاحِبُهم، وقُلْ مثلَ ذلكَ في الأسماعِ والأبصارِ والأوقاتِ، والمدنِ والأوطانِ، إذا لم تحلَّ فيها البركةُ تحوَّلَت إلى نارٍ وشَنارٍ وعارٍ، عياذًا باللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

والبركةُ مِن مَعانِيها الزيادةُ، والنماءُ، والثبوتُ، فيُبارَكُ للإنسانِ في دِينِه فيثبتُ على دِينِه، ويُباركُ له في عِزِّه فيَثبتُ له هذا العزُّ والتمكينُ، ويُبارَكُ له في وطنِه ومَسكنِه فيثبتُ له هذا الوطنُ وهذا المسكَنُ.

وتَحصيلُ البرَكةِ يَكونُ بثَلاثةِ أمورٍ:

الأمرُ الأوَّلُ: لا تَتنزَّلُ البركةُ إلَّا على مَن حقَّقَ التقوَى والإيمانَ، وهذا هوَ كلامُ الرحيمِ الرحمنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقَدْ قالَ لَنا في سُورةِ الأعرافِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

لذا قالَ النبيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ». أي: حقِّقِ التقوَى والإيمانَ يَمتلِئِ القلبُ غنًى، حتَّى لو عندَه الشيءُ اليسيرُ، أموالُه قَليلةٌ، أو راتبُه قليلٌ، أو مَسكنُه مُتواضعٌ، لكِنْ تجدُ في قلبِه غنًى، مُرتاحٌ «وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، رقم (٤١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتجدُه مَشغولًا في ليلِه ونَهارِه، يَركضُ ويَكدُّ، ولا يَرى نُصبَ عينَيْه إلَّا الفقرَ والحاجةَ والعوزَ؛ لأنَّ القلبَ لم يُملَأْ بالغنَى، يَشتكي ويَصيحُ ويَسخطُ ويَتذمَّرُ، والمالُ في يدِهِ، ويعيشُ في مسكنٍ، وأولادُه حولَه، لكِنَّه مُتذمِّرٌ، والسببُ أنَّه ابتُلِيَ بالشغلِ.

وحينَما سُئِلَ أحدُ السلفِ: على ماذا بَنيْتَ أمرَك؟ قال: «بنَيْت أمري على أربعِ خِصالٍ: علِمْتُ أن رِزقي لن يَأخذَه أحدٌ غيري فاطمأَنَّتْ به نَفْسي، وعلِمْت أنَّ عمَلي -أي: الَّذي كُلِّفْت به منَ الصلاةِ والصيامِ والزكاةِ والحجِّ- لم يَشتغِلْ به أحدٌ غيري فاشتَغَلْت به، وعلِمْت أنَّ الموتَ يَأتيني بَغتةً فتَهيَّأْت له وبادَرْتُه، وعلِمْت أنِّي لا أَخلو مِن عينِ اللهِ فاستَحْيَيْت مِنه أبدًا»[(١)].

فالَّذي يُحقِّقُ التَّقوَى والإيمانَ يَجدُ أنَّه يعيشُ في قَناعةٍ ورضًا، لا تَتطلَّعُ عينُه إلى ما أُعطِيَ فلانٌ، ولا إلى ما حصَّلَ فلانٌ، يعيشُ في راحةٍ، يَتلذَّذُ بالموجودِ في يَدِه، ولا يتطلعُ إلى ما هوَ مَوجودٌ في يدِ غيرِه، حتَّى لو كانَ الَّذي في يدِه قليلٌ يَستمتعُ بِه، ولا يتطلعُ إلى ما في أَيْدي الآخَرينَ؛ فإنَّ العبدَ إذا مدَّ عَينَيْه إلى ما في أَيْدي الآخَرينَ تَعذَّبَ، ولم يَهنَأْ بعيشٍ، ولم يَتلذَّذْ بالموجودِ بينَ يدَيْه.

لذا قالَ النبيُّ ﷺ: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»[(٢)]؛ أي: ارضَ بالموجودِ عندَك، ولا تَمُدَّ عينَك إلى موائدِ الآخَرينَ، كَمْ يأخذُ فلانٌ؟ أو كَمْ

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة رقم (١٦١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٧٣)، والبيهقي في الشعب رقم (١٢١٦)، من كلام حاتم الأصم.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، رقم (٢٣٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عندَه منَ الأولادِ؟ أو كَمْ جاءَتْه مِنَ الأُعطياتِ؟ فإنَّ هذا يُتعبُك أنتَ، وفلانٌ وفلانٌ وفلانٌ يَعيشون في راحةٍ.

الأمرُ الثاني: كُنْ شاكرًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، اشكُرْه على القليلِ يَزِدْك، فإنَّ مِن مَعاني البرَكةِ -كما سبَقَ- الزيادةَ، فليسَ بالضَّرورةِ أن يُصبحَ الدينارُ دِينارَيْنِ، لكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُباركُ لكَ في هَذا الدينارِ، فتَراهُ صلاحًا في ولدِك، أو تَراهُ صرفًا للأمراضِ عنكَ وعَن ولَدِك، أو تَراهُ طُمأنينةً تَجدُها في نفسِك، أو تَراهُ حُسنَ خُلقٍ في زَوجتِك وخادِمِك وجارِك، أو تراهُ عَيشًا هَنيئًا يَحفُّك مِن حَولِك. وليسَ بالضَّرورةِ أن يَكونَ زيادةً في الدُّورِ، أو العقارِ؛ لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

والناسُ أَصْبحت تَشتكي البرَكةَ؛ لأنَّهم أقلُّوا مِنَ الحمدِ والشُّكرِ، فكلمةُ «الحمدُ للهِ» أصبَحَت على ألسُنِ الناسِ اليومَ قَليلةً، وهيَ الَّتي كانَت لا تَنقطعُ عَن أَلسُنِ مَن سبَقَنا مِنَ الآباءِ والأجدادِ، معَ أنَّهم كانوا يَعيشونَ في حالةٍ مِنَ الضَّعفِ والفقرِ والعوزِ والحاجةِ، ولم يَرَوْا هذا الَّذي نَراهُ، وكانَ أحدُهم يَحمدُ اللهَ قائمًا وقاعدًا على قِلةِ ما في يَدِه.

أمَّا الآنَ فكثُرَ عندَ الناسِ التذمُّرُ وقلَّ الحمدُ؛ لِذا يقولُ الخليفةُ الراشدُ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما قالَه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن نَفسِه، إنَّما أخذَه مِن تِلكَ المدرسةِ العظيمةِ مَدرسةِ النُّبوةِ، قالَ: «إنَّ النعمةَ مَوصولةٌ بالشُّكرِ، والشكرُ مُتعلقٌ بالمزيدِ، وهُما مَقرونانِ في قَرنٍ، ولن يَنقطِعَ المزيدُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتَّى يَنقطعَ الشُّكرُ مِنَ العبدِ»[(١)].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر رقم (١٨)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٢١٤).

فالعبدُ إذا لم يَحمَدِ اللهَ أحالَ هذهِ النعمةَ إلى نِقمةٍ؛ قالَ الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ اللهَ ليُمتعُ بالنعمةِ ما شاءَ، فإذا لم يُشكَرْ قلَبَها علَيْهم عذابًا»[(١)].

الأمرُ الثالثُ: ومِنَ الأمورِ الَّتي تَتحصَّلُ بها البرَكةُ أكلُ الحلالِ، إذا اشتكَيْت مِن عدمِ وُجودِ البركةِ ففتِّشْ عَن مَوارِدِك، فإن كانَ فيها شيءٌ حرامٌ أغلِقْه، فكلَّما تَوسَّعَت دائرةُ الحرامُ في الموارِدِ عليكَ ارتَفَعَت البركةُ.

وليسَ بالضرورةِ أن تَأخذَ مالًا سَرقةً، فأنواعُ السرقةِ وأنواعُ أكلِ الحرامِ مُتعددةٌ، قَد تَسكنُ في بيتٍ ولا تَدفعُ الإيجارَ وتُماطلُ صاحبَه، أو تُؤجِّرُ عقارًا مكتبًا أو غيرَه وصاحبُه يُطالبُك بالإيجارِ فلا تُعطيهُ، وهذا حرامٌ، أو قد تَظلمُ خادِمًا عندَك في البيتِ فلا تَدفعُ له راتبَه، وهذا حرامٌ، هَذا كلُّه يَمحقُ البرَكةَ، أو قد تَكونُ مُهملًا مُقصِّرًا في واجبِك وفي عملِك، فتَتعاطَى أموالًا حرامًا، فتهربُ البرَكةُ، قالَه رسولُ اللهِ ﷺ الَّذي لا يَنطقُ عنِ الهوَى.

فقَدْ جاءَ في صَحيح مُسلمٍ مِن حديثِ أَبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قالَ ﷺ: «**مَنْ يَأْخُذْ مَالًا بِحَقِّهِ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ يَأْخُذْ مَالًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**»[(٢)]، مثلُ: البَحرِ مَهما ألقَيْت فيهِ لا يُحسُّ، تُعطيهِ فلا يَشبعُ، والسببُ عدمُ وجودِ البرَكةِ.

لِذا فالإشكالُ العظيمُ أنَّ العبدَ إذا أطعمَ نَفسَه أو أبناءَه الحرامَ حرَّكَ هذهِ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر رقم (١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، رقم (٦٤٢٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٠٥٢).

الجوارحَ إلى المعصيةِ، يَقولُ أحدُ أبناءِ الإسلامِ مِنَ السلفِ الكرامِ: «مَن أكلَ الحرامَ عصَتْ جوارِحُه شاءَ أَمْ أَبَى، علِمَ أو لم يعلَمْ، ومَن كانَت طُعمتُه حلالًا أطاعَتْه جوارحُه ووُفِّقَت للخيراتِ»[١].

⁂

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٩١)، من كلام سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١٩)

تعظيمُ اللهِ تَعالى

تعظيمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن أَجَلِّ العباداتِ وأعظمِها، وقَدْ غفلَ عَن ذلكَ كثيرٌ مِنَ الناسِ، وهوَ الَّذي يُعطِي العبادةَ روحَها، وجمالَها، وجَلالَها.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «مَدارج السالِكينَ»: «ورُوحُ العِبادةِ هوَ الإجلالُ والمَحبةُ، فإذا تَخلَّى أحدُهما عَنِ الآخرِ فسَدَت»[1].

والمتأمِّلُ في سُنتِه ﷺ يَجدُ أنَّه كانَ مُعظِّمًا لمولاهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشدَّ التعظيمِ في قولِه، وفعلِه، واعتقادِه، ويَكفي أن تَلتفتَ إلى صورةٍ واحدةٍ وهو يَنوي الصلاةَ فيُكبِّرُ فيُعظِّمُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثُم يقرأُ دعاءَ الاستفتاحِ بتَعظيمٍ فيقولُ فيهِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٤).

«أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[١]. ثُمَّ يقرأُ الفاتِحةَ.

أرأَيْت هذا التعظيمَ؟! لأنَّه رُوحُ العبادةِ.

وقالَ عوفُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ فِي رُكُوعِهِ قَدْرَ سُورَةِ البَقَرَةَ، يَقُولُ: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»[٢]، يُردِّدُها ﷺ؛ لأنَّه قالَ: «فَأَمَّا الرُّكوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»[٣].

والسَّبيلُ إلى تعظيمِ اللهِ مُمكنٌ أن يَكونَ مِن هَذهِ الطرُقِ الثلاثِ:

أَمَّا الأَوَّلُ: فإذا أرَدْتَ أن تُعظِّمَ اللهَ فتعرَّفْ على اللهِ.

كيفَ تُعظِّمُه سُبحانَه وأنتَ لا تَعرفُه؟! إنَّ أصحابَ الآلهةِ المُبتدعةِ يَخلُقون لآلهتِهم في أَساطيرِهم وخُرافاتِهم صُورًا؛ حتَّى تَتعلَّقَ قلوبُ الأتباعِ بذلِكَ الصنَمِ، أمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقَدْ أمَرَنا أن نَتعرَّفَ عليهِ سُبحانَه فقالَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[٤].

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعلى قدرِ المعرفةِ يَكونُ تعظيمُ الربِّ تَعالى في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، رقم (١١٢٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٧٣)، والنسائي: كتاب التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع، رقم (١٠٤٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القلبِ، وأعرفُ الناسِ بهِ أشدُّهم له تَعظيمًا وإجلالًا»[(١)].

فماذا تَعرفُ عَنِ اللهِ؛ عَن أَسمائِهِ، وصِفاتِه، وأفعالِه، ونُعوتِ جَلالِهِ؟!

دونَك كِتابَهُ المفتوحَ في هذا الكونِ العظيمِ الَّذي سُمِّيَ كَونًا؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ لهُ: «كُنْ» فكانَ.

ودونَك هذا الكِتابَ المَقروءَ، فاقرَأْ فيهِ لتتعرَّفَ على خالقِك سبحانَه الَّذي عرَّفَك بنفسِه فقالَ في سُورةِ الكهفِ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ [الكهف: ١٠٩]: أي: حِبرًا يُكتبُ به عِلمُ اللهِ.

وقالَ سُبحانَه في سُورةِ لُقمانَ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان: ٢٧].

فتصوَّرْ هذا الشجرَ الَّذي علَى هذهِ البَسيطةِ مُنذُ أن خلَقَها اللهُ إلى قيامِ الساعةِ، لو بُرِيَت هذه أقلامًا فكُتِبَ علمُ اللهِ ما نَفِدَت كلماتُ اللهِ.

لذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[(٢)].

فعِلْمُ ذلكَ كلِّه عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتعرَّفْ عليهِ سُبحانَه حتَّى يَعْظُمَ ذلكَ في قلبِك.

وقَدْ ذَمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذينَ لا يُعظِّمونَه ولا يُوقِّرونَه، ولا يُجلُّونَه فقالَ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣- ١٤].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فتعرَّفْ عَلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا السبيلُ الأولُ.

السبيلُ الثاني: إذا أرَدْت أن يَعْظُمَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى في قلبِك فاطَّرِحْ بينَ يدَيْه واسأَلْه حوائِجَك صغيرَها قبلَ كبيرِها، واصمُدْ إليهِ، والجَأْ إليهِ، ولْيَخلُ قلبُك مِن كلِّ شيءٍ إلَّا هوَ سُبحانَه.

دخلَ سَعيدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ في مجلسِ يَزيدَ بنِ هارونَ وقدِ اغتمَّ واهتمَّ، وظهرَ على وجهِه الشقاءُ والغلقُ والتفكيرُ، فسألَه مَن بِجانبِه: ما بِكَ؟ قالَ: نَفَقتي نفِدَت ولا شيءَ عِندي. قالَ لَه: مَن تؤمِّلُ؟ قالَ: يَزيدَ بنَ هارونَ. قالَ: إذَنْ لا تُقضَى حاجتُك، ولا تنجَحُ طِلْبَتُكَ. قالَ: لِماذا؟ قالَ: قرأتُ فيما قرأتُ أنَّ اللهَ يقولُ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَجُودِي وَكَرَمِي، وَارْتِفَاعِي فِي مَكَانِي لَأَقْطَعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤَمِّلٍ يُؤَمِّلُ غَيْرِي بِالإِيَاسِ، وَلَأَكْسُوَنَّهُ ثَوْبَ المَذَلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَأُنَحِّيَنَّهُ عَنْ وَصْلِي، وَلَأُبْعِدَنَّهُ مِنْ قُرْبِي، أَيُؤَمِّلُ فِي الشَّدَائِدِ غَيْرِي وَالشَّدَائِدُ بِيَدِي؟! أَوَيَقْرَعُ بِالفَقْرِ بَابَ غَيْرِي وَبِيَدِي مَفَاتِيحُ الأَبْوَابِ؟! مَنْ ذَا الَّذِي رَجَانِي لِنَائِبَةٍ فَقَطَعْتُ بِهِ دُونَهَا؟! وَمَنَ

الَّذِي رَجَانِي لِجُرْمٍ أَذْنَبَهُ فَقَطَعْتُ رَجَاءَهُ؟! وَمَنْ ذَا الَّذِي دَعَانِي فَلَمْ أَفْتَحْ لَهُ»[(١)].

إذَنِ: اطَّرِحْ بينَ يدَيِ اللهِ، وأسمِعْه صوتَك، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحبُّ أن يَسمعَ صوتَك الضعيفَ وأنتَ تقولُ: «يا اللهُ»، كما كانَ يفعلُ مَن سبَقَنا منَ الصالِحِينَ، ومَن يَعيشُ اليومَ معَنا مِنَ المُتَّقين يَعرِفون اللهَ قبلَ نُزولِ الشدةِ، فإذا نزَلَت بهِمُ الشدائدُ قالوا: «يا اللهُ»، فقالَتِ الملائِكةُ: «يا ربِّ، هذا صوتُ عبدِك فلانٍ نعرفُه يومَ الرخاءِ فاعرِفْه يومَ الشِّدةِ».

وكانَ مُحاربُ بنُ دثار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُسمعُ له مُناجاةٌ في اللَّيلِ وهوَ يُنادِي ربَّه في بيتِه يقولُ: «اللَّهمَّ أنا الصغيرُ الَّذي ربَّيْتَه فلكَ الحمدُ، وأنا الضعيفُ الَّذي قوَّيْتَه فلكَ الحمدُ، وأنا الفقيرُ الَّذي أَغنَيْتَه فلكَ الحمدُ، وأنا العارِي الَّذي كسوتَه فلكَ الحمدُ، وأنا المسافرُ الَّذي صحِبتَه فلكَ الحمدُ، وأنا الراجِلُ الَّذي حمَلْتَه فلكَ الحمدُ، وأنا المريضُ الَّذي شفَيْتَه فلكَ الحمدُ، وأنا الداعي الَّذي أجَبْتَه فلكَ الحمدُ»[(٢)].

السبيلُ الثالثُ: إذا أرَدْت أن يَعْظُمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قَلبِك فعظِّمْ شرعَه، وعَظِّمْ أمرَهُ ونَهيَه، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

فإذا كانَ تَعظيمُ الشعيرةِ تَعْظُمُ بِه التقوَى في القلوبِ فكيفَ بتَعظيمِ المُشرِّعِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر رقم (١٩٩)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٢٧٦).

وقد مرَّ رجلٌ لم يكُنْ مَعروفًا، اسمُه «بِشرٌ الحافي»، مرَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الطريقِ فوجدَ ورقةً كُتِبَ عليها اسمُ اللهِ، والأقدامُ تَطؤُها، فعظُمَ ذلكَ في قلبِه كيفَ يُداسُ اسمِ اللهِ؟ فرفعَ هذهِ الورقةَ الصَّغيرةَ واشترَى طيبًا فطيَّبَ هذه الورقةَ ووضعَها في مكانٍ مُرتفعٍ، فلمَّا نامَ رأَى في المنامِ مَن يَقولُ لَه: «يا بِشرُ، طيَّبْتَ اسمَنا ورفَعْتَه لأطيبنَّ اسمَكَ ولأرفعَنَّه بينَ الناسِ في الدُّنْيا والآخرةِ»[(١)].

وهاهُوَ اسمُه مرفوعٌ، فقَدْ عاشَ في القرنِ الثاني ونحنُ اليومَ نَعيشُ في القرنِ الرابعَ عشرَ نَذكرُه ونترحَّمُ عليهِ، على مَنابِرِنا، وفي مَجالِسِنا حينَما عظَّمَ اللهُ بهذا الفعلِ اليسيرِ، فأصبحَ مِنَ العبادِ الزُّهَّادِ، وهوَ القائلُ: «ولو عظَّمَ الناسُ ربَّهم ما عصَوْه»[(٢)].

وقالَ الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِن قيامِ ليلةٍ»[(٣)].

فكَمْ نحنُ بحاجةٍ إلى أن نَتفكَّرَ في آلاءِ اللهِ ونِعمِه، ننظرُ إلى السماءِ، وإلى الجبالِ، وفي أنفسِنا، وفي أحوالِنا، وأحوالِ مَن حولَنا، كيفَ تَتغيَّرُ الأمورُ، وكيفَ تَصيرُ؟

وتدبَّرْ هذه الأبياتَ العظيمةَ حينَما قالَ فيها القائلُ:

قُـلْ لِلطَّبِيـبِ تَخَطَّفَتْـهُ يَـدُ الـرَّدَى ... يَـا شَـافِيَ الأَمْـرَاضِ مَـنْ أَرْدَاكَـا؟

قُـلْ لِلْمَـرِيضِ نَجَـا وَعُـوفِيَ بَعْدَمَـا ... عَجَزَتْ فُنُونُ الطِّـبِّ مَـنْ عَافَـاكَا؟

قُلْ لِلصَّـحِيحِ يَمُـوتُ لَا مِـنْ عِلَّـةٍ ... مَـنْ بِالمَنَايَـا يَـا صَحِيـحُ دَهَـاكَا؟

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٣٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ١٨١).

(٢) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي (١٤/ ٣٥٤)، ومفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٨٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٨٥)، ولطائف المعارف لابن رجب (ص: ٣٣٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٦٣٧١)، وأحمد في الزهد رقم (١٥٤٧).

قُـلْ لِلْبَصِـيرِ وَكَـانَ يَحْـذَرُ حُفْـرَةً فَهَوَى بِهَـا مَـنْ ذَا الَّـذِي أَهْـوَاكَا؟
بَلْ سَائِلِ الأَعْمَى خَطَا بَـيْنَ الزِّحَا مِ بِلَا اصْطِدَامٍ مَـنْ يَقُـودُ خُطَـاكَا؟
قُـلْ لِلْجَنِـينِ يَعِيـشُ مَعْـزُولًا بِـلَا رَاعٍ وَمَرْعًـى مَـا الَّـذِي يَرْعَـاكَا؟
قُـلْ لِلْهَـوَاءِ تَحُثُّـهُ الأَيْـدِي وَيَخْـ ـفَـى عَنْ عُيُونِ النَّاسِ مَـنْ أَخْفَـاكَا؟
وَإِذَا تَـرَى الثُّعْبَـانَ يَنْفُـثُ سَمَّـهُ فَاسْـأَلْهُ مَـنْ ذَا بِالسُّـمُومِ حَشَـاكَا؟
وَاسْـأَلْهُ يَـا ثُعْبَـانُ كَيْـفَ تَعِيـشُ أَوْ تَحْيَـا وَهَـذَا السَّـمُّ يَمْـلَأُ فَـاكَا؟
وَاسْأَلْ بُطُونَ النَّحْلِ كَيْـفَ تَقَـاطَرَتْ شَهْدًا وَقُلْ لِلشَّهْـدِ مَـنْ حَـلَّاكَا؟
وَإِذَا تَـرَى الجَبَـلَ الأَشَـمَّ مُنَاطِحًـا قِمَمَ السَّحَابِ فَسَلْهُ مَـنْ أَرْسَـاكَا؟
يَـا أَيُّهَـا الإِنْسَـانُ مَهْـلًا مَـا الَّـذِي بِـالله جَـلَّ جَلَالُـهُ أَغْرَاكَـا؟
فَاسْـجُدْ لِمَـوْلَاكَ القَـدِيرِ فَـإِنَّمَا لَا بُـدَّ يَوْمًـا تَنْتَهِـي دُنْيَاكَـا
وَتَكُـونُ فِي يَـوْمِ القِيَامَـةِ مَـاثِلًا تُجْـزَى بِـمَا قَـدْ قَدَّمَتْـهُ يَـدَاكَا[1]

إنَّ العاقلَ هوَ الَّذي يَعتبِرُ بِما يحصلُ مِن حولِه فيَعظُمُ شأنُ ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قلبِه.

* * *

(١) الأبيات للشاعر إبراهيم بديوي، انظر: تعظيم الله جل جلاله «تأملات وقصائد» لأحمد بن عثمان المزيد (ص: ٢٤٥ – ٢٤٧).

(٢٠)

تَعظيمُ الكائناتِ لربِّ البريَّاتِ

تَحدَّثْنا فيما مضَى عَن: تَعظيمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنَّه مِن أَعظمِ العباداتِ، وبيَّنَّا أنَّ تَعظيمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو روحُ العبادةِ، وجمالُها، وجلالُها، ولكِنْ يَبقَى في خَلقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن بَني آدَمَ ممَّنْ لا يُعظِّمُ اللهَ، ويُعظِّمُ غيرَه منَ المخلوقاتِ، فجاءَ في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وسُنةِ رَسولِه ﷺ البيانُ الواضحُ: أنَّك إذا لم تُعظِّمْ ربَّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهُناكَ مَن يُعظِّمُه مِن خَلقِه مِن هذِهِ الدوابِّ، وهذِهِ الجماداتِ.

بَلْ كلُّ شيءٍ خلَقَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعظِّمُ الخالقَ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَسْتَقِلُّ الشَّمسُ»: أي: لا تُشرقُ وتَطلعُ «فَيَبْقَى شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا سَبَّحَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَحَمِدَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَأَعْتَى بَنِي آدَمَ»[(١)].

لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين رقم (٩٦٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (١٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١١)، من حديث عمرو بن عبسة السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورة الحجِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ النورِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

فلْيُعِدِ العبدُ النظرَ في نَفسِه كيفَ يُعظِّمُ خالقَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلُّ مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ يُعظِّمُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالسجودِ، وبالتسبيحِ، وبالتحميدِ، أَذكرُ مِنْ ذلكَ نَماذجَ:

النموذجُ الأولُ: الشجرُ، وكلُّ نبتٍ يَنبتُ على الأرضِ يُعظِّمُ الخالقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[الرحمن: ٦].

وخرجَ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا معَ النَّبيِّ ﷺ في سفرٍ فأقبلَ عليهما أعرابيٌّ، فلمَّا دَنا مِنَ النَّبيِّ ﷺ قالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ تُرِيدُ؟**» قالَ: إلى أَهلِي. قالَ: «**هَلْ لَكَ فِي خَيرٍ؟**» قالَ: وَمَا هُوَ؟ قالَ: «**تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَى مَا تَقُولُ؟. هؤلاءِ الأعرابُ يُدرِكون معنَى: أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمدًا رسولُ اللهِ. فقالَ ﷺ: «**هَذِهِ السَّلَمَةُ**»، وفي روايةٍ: «**هَذِهِ السَّمُرَةُ**»[(١)].

والسَّلَمةُ والسَّمُرةُ: نوعٌ مِن شجرِ البوادِي. فدعاها رَسولُ اللهِ ﷺ فقامَتْ

(١) أخرجه الدارمي في سننه رقم (١٦)، وأبو يعلى في المسند رقم (٥٦٦٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٦٥٠٥).

مِن جُذورِها تَخدُّ الأرضَ خدًّا حتَّى وقَفَت بينَ يدَيِ النَّبيِّ ﷺ، فاستَشْهَدها ثلاثًا، فشهِدَت على ما يَقولُ النبيُّ ﷺ ثُمَّ أمَرَها أن تَعودَ إلى مَنبتِها.

بَلْ قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والحديثُ عندَ ابنِ ماجَهْ في سُننِه: «أَقْبَلَ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَأَيْتُ البَارِحَةَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنِّي أُصَلِّي إِلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، فَقَرَأْتُ السَّجْدَةَ فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا تَقُولُ: اللَّهُمَّ احْطُطْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا» أي: بهذهِ السجدةِ «وَاكْتُبْ لِي بِهَا أَجْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ السَّجْدَةَ فَيَسْجُدُ فَيَقُولُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ الرَّجُلُ مِنْ قَولِ الشَّجَرَةِ»(١).

وفي حَديثِ سَهلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ ابنِ ماجَهْ أيضًا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مُلَبٍّ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا**»(٢).

أي: تَتفاعلُ هذه الجماداتُ والنباتاتُ معَ هذا المُلبِّي فيُردِّدون معَه التلبيةَ: «لبَّيْكَ اللَّهمَّ لبَّيْك، لبَّيْك لا شَريكَ لكَ لبَّيْكَ». إنَّها مَخلوقاتٌ تُعظِّمُ الخالِقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا في جانبِ الشَّجرِ والنَّباتِ.

النموذجُ الثاني: في جانبِ الدوابِّ -هذهِ الَّتي نَراها بامتِهانٍ واحتقارٍ-، إنَّها تُعظِّمُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كِتابِه عَن هَذهِ الدوابِّ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يقول في سجود القرآن، رقم (٥٧٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب سجود القرآن، رقم (١٠٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الحج، باب ما جاء في فضل التلبية، رقم (٨٢٨)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب التلبية، رقم (٢٩٢١).

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[النحل: ٤٩- ٥٠].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندَ النَّسائيِّ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُصِيخَةً -أي: تَستمعُ- حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ»[(١)].

وابنُ آدمَ واحدٌ مِن هذه الدوابِّ، لكِنَّ تلكَ الدوابَّ تخافُ مِن قيامِ الساعةِ، وتَعلمُ أنَّ الساعةَ تَقومُ يومَ الجمعةِ، فتكونُ على وَجَلٍ وفي خوفٍ، فإذا طلَعَتِ الشمسُ مِن مَشرِقِها اطمَأَنَّتْ أنَّ هذا ليسَ يومَ القيامةِ؛ لأنَّها تُدركُ أنَّ يومَ القيامةِ تَطلعُ الشمسُ مِن مَغربِها.

وانظُرْ إلى حالِ المُسلِمينَ اليومَ كيفَ يَعصون ربَّهم ليلةَ الجُمعةِ، فأكثرُ ما يَعصي المسلمُ ربَّه في مثلِ هذهِ الأيامِ ليلةُ الجمعةِ، الليلةُ الَّتي تقومُ فيها الساعةُ، وهذه الدوابُّ الَّتي مِن حولِه يَصفُها رسولُ اللهِ ﷺ أنَّها مُصيخةٌ، ومُشفقةٌ مِن قيامِ الساعةِ.

وجاءَ في حديثِ أَبي ذَرٍّ عندَ النسائيِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا وَيُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَحَرٍ -وفي روايةٍ: «عِنْدَ كُلِّ فَجْرٍ»- بِدَعْوَتَيْنِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ وَجَعَلْتَنِي لَهُ، فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ أَهْلِهِ، وَمَالِهِ إِلَيْهِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٦)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٦)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء، رقم (١٤٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢، ١٧٠)، والنسائي: كتاب الخيل، باب دعاء الخيل، رقم (٣٥٧٩)، وفي الكبرى رقم (٤٣٩٠).

النموذجُ الثالثُ: الجبالُ تُعظِّمُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتَكادُ تَتصدَّعُ مِن خَشيةِ اللهِ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سِياقِ إنكارِه عَلى الَّذينَ ادَّعَوْا أنَّ لهُ ولدًا: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: مِن هَذا القولِ الآثِمِ، ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم: ٩٠- ٩١].

وقالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فإذا لم يَعظُمِ الخالِقُ في قُلوبِنا فإنَّ هُناكَ مَن يُعظِّمُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأعظمُ صورِ التعظيمِ السجودُ للهِ، وهذهِ الدوابُّ الَّتي ذُكِرَت والشجرُ، وغيرُها منَ المَخلوقاتِ تُعظِّمُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بسجودٍ يليقُ بِها، وإنَّك لتَعجبُ مِن هذا العبدِ الَّذي خلَقَه اللهُ فسوَّاهُ فعدَلَه، ثمَّ ركَّبَه في أحسنِ صُورةٍ يأنفُ ويتكبَّرُ، ويغترُّ أن يسجدَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي المقابلِ تَجدُ هَذا الخلقَ الكبيرَ العظيمَ وهُمُ الملائكةُ لا يَستكبِرون عَن هَذهِ العبادةِ وهيَ السجودُ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

فإذا أرَدْت أن تَتصوَّرَ وتَتخيَّلَ فقَطْ حجمَ أحدِ الملائكةِ الَّذينَ يَحمِلون العرشَ، فانظُرْ ماذا قالَ النبيُّ ﷺ فقَدْ قالَ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في الجهمية، رقم (٤٧٢٧)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهذا المخلوقُ العَظيمُ الكبيرُ يخافُ وجِلًا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وجاءَ عِندَ الترمذيِّ في سُننِه مِن حَديثِ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ»** أي: أصدَرَتْ صوتًا، **«وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ»**(١).

إنَّ مثلَ هذه الأمورِ تَبعثُ في نفوسِنا إعادةَ النظرِ في هذه العبادةِ وتعظيمَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثُمَّ إذا قصَّرَ العبدُ في تَعظيمِ اللهِ فلْيَعلَمْ أنَّ هُناكَ خَلْقًا كثيرًا مِن خَلقِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعظِّمونَه ويُجِلُّونَه حبًّا لهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتَعظيمًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم»، رقم (٢٣١٢).

(٢١)

لستَ وحدَكَ، فالملَكُ معَكَ

ما منَّا مِن أحدٍ إلَّا وتَعتريهِ حالاتٌ يَشعرُ مِن خِلالِها بالوحدةِ، ويَشعرُ أنَّه مَعزولٌ عنِ الناسِ ومقطوعٌ عَنْهم، خاصةً حينَما يَضعفُ مِن بعدِ قُوتِه، أو يَمرضُ مِن بعدِ صِحتِه، أو يَفتقرُ مِن بعدِ غِناهُ، أو حينَما يَهجرُه الناسُ حينَما يَفقدُ سُلطانَه وجاهَه ومكانتَه، فجاءَ الشرعُ الحَكيمُ يُعالجُ هَذا الشعورَ، فجعلَ الخالقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن مَخلوقاتِه ما يَأنسُ هذا الإنسانُ بِها، ومِن هذهِ المخلوقاتِ المَلائكةُ، فهُمْ خلقٌ مِن خَلقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والإيمانُ بِهم واجبٌ، وهوَ أصلٌ مِن أصولِ الاعتقادِ، لا يَتمُّ الإيمانُ إلَّا بهِ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ البَقرةِ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والإنسانُ الَّذي لا يُؤمنُ بالملائِكةِ يُعرِّضُ نفسَه للكفرِ -عياذًا باللهِ-؛ إذ يَقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ النساءِ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والمَلَكُ لهُ أحوالٌ معَ الإنسانِ، كما أنَّ الشيطانَ لهُ أحوالٌ معَ الإنسانِ، وبيَدِك أنتَ مَن تُقرِّبُ، أتُقرِّبُ الملائكةَ أو تُقرِّبُ مِنك الشياطينَ، عياذًا باللهِ؟

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَـمَّةً، وَلِلْمَلَكِ لَـمَّةً»، أي: حُضورٌ في نفسِك وفي خواطِرِك وذِهنِك «فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعادٌ بالشَّرِّ وتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ»، ثُم قرأَ ﷺ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨][(١)].

فيا مَن تَشعرُ بالوحدةِ لسْتَ وَحدَك إذا استَحضَرْت أنَّ المَلَكَ معَكَ، وتُوجدُ في ذلكَ مَشاهدُ كثيرةٌ:

المشهدُ الأوَّلُ: الملائكةُ تَحرسُك، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الرعدِ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما جاءَ في تَفسيرِ ابنِ كثيرٍ: «مَلائكةٌ يَحفظونَه مِن بينِ يَديهِ ومِن خَلفِه، فإذا جاءَ قدَرُ اللهِ خَلوا عَنْه»[(٢)] أي: إذا جاءَ الموتُ.

وقالَ مجاهدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما مِن عَبدٍ إلَّا لهُ ملَكٌ موكَّلٌ يَحفظُه في نومِه ويَقَظتِه، منَ الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فما مِنها شيءٌ يأتيهِ يُريدُه إلَّا قالَ المَلَكُ: وراءَك إلَّا شيءٌ يأذنُ اللهُ فيهِ فيُصيبُه»[(٣)].

ثُم اقرَؤُوا قولَ الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: ٦١].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٨٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٨).

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ٤٦٠).

المشهدُ الثاني: لستَ وَحدَك حتَّى في مَنامِك، فالمَلَكُ يَأتي ليَنامَ بقُربِك، بل يَنامُ في شِعارِك إذا بِتَّ طاهرًا، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ كما جاءَ عندَ الطبَرانيِّ في «مُعجمِه الكَبيرِ» مِن حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**طَهِّرُوا هَذِهِ الأَجْسَادَ طَهَّرَكُمُ اللهُ، مَا مِنْ عَبْدٍ بَاتَ طَاهِرًا إِلَّا بَاتَ فِي شِعَارِهِ مَلَكٌ كُلَّمَا تَقَلَّبَ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةً قَالَ الْمَلَكُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِرًا**»(١).

المشهدُ الثالثُ: لستَ وَحدَك، فالمَلَكُ يَدعو لكَ وأنتَ نائمٌ، فأيُّ وحدةٍ تَشعرُ بِها الآنَ؟ وأيُّ عُزلةٍ تَشعرُ بها الآنَ؟ ملكٌ يَحرسُك في يَقظتِك وفي مَنامِك، معَكَ كلَّما تَقلَّبْت دعا لكَ.

المشهدُ الرابعُ: لستَ وحدَك وأنتَ تَدعو اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقَدْ جعلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ملائِكةً يُؤمِّنون على ما تَقولُ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(٢).

أي: هذا الَّذي رفعَ يدَيْه في خلوةٍ يَدعو لفلانٍ مِن إخوانِه، أو زُملائِه، وهُم لا يَدرونَ ولكِنَّ اللهَ يَدري، فسخَّرَ هذا الملكَ يَقولُ لكَ: «آمِينَ، ولكَ بالمِثْلِ».

بل قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (١٠٥١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٦، رقم ١٣٦٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر، رقم (٩٢٠) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

المَشهدُ الخامِسُ: لستَ وَحدَك حتَّى في مَسيرِك إذا سِرْتَ، وفي سفَرِك إذا كنتَ مُسافرًا، إذا كنتَ ذاكِرًا لله، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ رَاكِبٍ يَخْلُو فِي مَسِيرِهِ بِاللهِ وَذَكَرَهُ إِلَّا رَدَفَهُ مَلَكٌ**»(١).

فمَن يَشعرُ بالوحدةِ بعدَ ذلكَ؟!

المَشهدُ السادسُ: الملكُ معَكَ في صلاتِك إذا جِئتَ إلى المسجِدِ، أو صلَّيْت في بيتِك، أو في أرضٍ مُنقطعةٍ، وهُناكَ شَواهدُ كثيرةٌ على ذلكَ، مِنها: ما جاءَ في صَحيح البُخاريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ**»، أي: تَدعو لهُ، «**مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**»(٢).

وَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ، لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ**»(٣).

فأيُّ وحدةٍ تَشعرُ بِها؟!

وجاءَ عندَ عبدِ الرزَّاقِ مِن حَديثِ سَلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بِأَرْضٍ قِيٍّ**»، وأرضُ القيِّ: هيَ الأرضُ المُنقَطعةُ في فَلاةٍ في أرضٍ أو بَحرٍ ليسَ معَه أحدٌ، «**فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَلْيَتَوَضَّأْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً فَلْيَتَيَمَّمْ،**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٤، رقم ٨٩٥)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الحدث في المسجد، رقم (٤٤٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم (٦٤٩/ ٢٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٥٩)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ أَقَامَ» أي: أقامَ الصلاةَ وهوَ بِمُفردِه ليسَ معَه أحدٌ في بَرٍّ، أو بحرٍ، في واجبٍ، أو وَظيفةٍ، أو مُناوبةٍ، «صَلَّى مَعَهُ مَلَكَاهُ، وَإِنْ أَذَّنَ وَأَقَامَ صَلَّى خَلْفَهُ مِنْ جُنُودِ الله مَا لا يُرَى طَرَفَاهُ»[(١)].

فلا تظنَّ أنَّك وحدَك وهَذا الخلقُ العَظيمُ يُصلُّون خلفَكَ.

المشهدُ السابعُ: الملكُ معَكَ وأنتَ تُنفِقُ وتُعطي، ويَدعو لكَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا. وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[(٢)].

المشهدُ الثامِنُ: يُشعرُك بهذا العزِّ، ويصرِف عنكَ الشعورَ بالوحدةِ حينَما تَخرجُ بِمُفردِك تَعودُ مَريضًا، في مَشفَى، أو في بَيتِه، أو في المَكتبِ المجاورِ لِمَكتبِك، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَخْرُجُ يَعُودُ مَرِيضًا مُمْسِيًا إِلَّا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ»، أنتَ لا تراهُمْ، ولكِنَّك تُؤمِنُ بِهِم؛ لأنَّ الَّذي أخبرَك بذلكَ الَّذي لا يَنطقُ عَنِ الهوَى مُحمدٌ ﷺ «يَسْتَغْفِرُونَ لَه حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ أَتَاهُ مُصْبِحًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَه حَتَّى يُمْسِيَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الجَنَّةِ»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١١٥، رقم ٣٤١)، وعبد الرزاق في المصنف رقم (١٩٥٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٤٩، رقم ٦١٢٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (١٤٤٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٢٠-١٢١)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في فضل العيادة على وضوء، رقم (٣٠٩٨)، والترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عيادة المريض، رقم (٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضا، رقم (١٤٤٢)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المَشهدُ التاسعُ: الملكُ معَكَ أنتَ أيُّها التائبُ، فحِينَما تَشعرُ أنَّك تُبتَ إلى اللهِ فاعلَمْ أنَّك لستَ وَحدَك، فإنَّ الملائكةَ معَك حينَما تَبدأُ خُطوتَك الأُولى في التوبةِ، أخبَرَنا بذلِكَ رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورةِ غافرٍ؛ حيثُ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

يَقولونَ في هَذا الاستغفارِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧- ٩].

فأنتَ تَتوبُ هُنا على الأرضِ، والملائكةُ حولَ العَرشِ يَتفاعَلون معَ تَوبتِك؛ ليُشعِروكَ بأنَّك لستَ وحدَك، وحقًّا لستَ وحدَكَ.

المَشهدُ العاشرُ: لستَ وحدَك وأنتَ تُصلِّي على النبيِّ ﷺ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ كما جاءَ في حَديثِ عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ، فَإِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِي مَلَكًا عِنْدَ قَبْرِي، فَإِذَا صَلَّى عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي، قَالَ لِي ذَلِكَ المَلَكُ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ صَلَّى عَلَيْكَ السَّاعَةَ**»[(١)].

وأظنُّ أنَّ ذلكَ مِن برِّ والِدَيْك، فإنَّ الملكَ يَذكُرُك باسمِك واسمِ والِدِك، يقولُ: «**إِنَّ فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ صَلَّى عَلَيْكَ السَّاعَةَ**».

---

(١) عزاه السيوطي في اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٦٠)، والمتقي الهندي في كنز العمال رقم (٢١٨١) للديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالعبدُ إذا صلَّى على النبيِّ ﷺ حملَ هذا الملكُ الَّذي جاءَ؛ ليُشعِرَك بالتأييدِ والنصرةِ، وبأنَّكَ لستَ وحدَكَ.

والشواهدُ واللهِ إنَّها كثيرةٌ، وأكثرُ مِمَّا ذكَرْتُ كلُّها تدلُّ على وجودِ هذا المخلوقِ العَظيمِ الَّذي هيَّأَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنا لتَنصرِفَ ويَنصرفَ عنَّا شُعورُنا بالوحدةِ، أو بالضَّعفِ، أو بالعُزلةِ.

ولكِنْ لنَعلَمْ جَميعًا أنَّ الوحدةَ والعُزلةَ إذا لم تَكُنْ في طاعةِ اللهِ ومَرضاتِه، وإعانةً للعبدِ في ثَباتِه على الدِّينِ، فإنَّها مَذمومةٌ، ومَيدانٌ لتسلُّطِ الشَّياطينِ.

✖ ⌑ ✖

(٢٢)

تَعزيةٌ

ما منَّا مِنْ أحدٍ إلَّا وقَدْ أُصيبَ بفَقدِ عزيزٍ عليهِ، والدٍ أو ولَدٍ، حَبيبٍ أو قريبٍ، صديقٍ وعزيزٍ، وما منَّا مِن أحدٍ إلَّا وقَدْ أُصيبَ بألَمِ الفِراقِ، وما منَّا مِنْ أحَدٍ إلَّا وقد أُصيبَ في أحدِ أقربائِه بِمُصيبةِ الموتِ.

والموتُ كأسٌ، وما منَّا مِنْ أحَدٍ إلَّا وسيَشربُ مِن هَذا الكأسِ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكَّدَ هذهِ الحَقيقةَ حينَما قالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ الأنبياءِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وفي سورةِ العَنكبوتِ يُكرِّرُ هذهِ الحقيقةَ فيَقولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وسمَّاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُصيبةً، فقالَ في سُورةِ المائدةِ: ﴿فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وإنَّني أُوجِّهُ رِسالةَ تَعزيةٍ، **أُضمِّنُها هذهِ الوَصايا لكلِّ مُصابٍ:**

الوصيةُ الأُولى في هذهِ الرسالةِ: تَذكَّرْ أيُّها المصابُ ما أعَدَّه اللهُ لكَ مِنَ الأجرِ

والثوابِ إذا احتَسَبْتَ وصبَرْتَ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

فازُوا وظفِرُوا بصلاةٍ مِنَ اللهِ ورحمةٍ وهدًى؛ لِذا لَـمَّا ماتَ ولدٌ لعبدِ اللهِ بنِ مُطرِّفٍ جاءَهُ المعزُّون يُعزُّونه في فقدِ ولدِه، فقالَ مَقولتَه الشهيرةِ: «واللهِ لَوْ أنَّ الدُّنْيا وما فيها لي، فأخَذَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنِّي، ووعَدَني عليْها شَربةً مِن ماءٍ، لرأَيْتُها - أي: لرأيتُ تلكَ الشَّربةَ- أهلًا لذلكَ، فكيفَ بالصلاةِ والرحمةِ والهُدَى؟!»[(١)].

وجاءَ عِندَ مُسلمٍ، مِنْ حديثِ أُم سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»[(٢)].

فيُعطَى الأجرَ، والخلفَ والعِوضَ، إذا صبَرَ واحتسَبَ.

وفي «صَحيح مُسلمٍ» أيضًا: جاءَتِ امرأةٌ إلى النبيِّ ﷺ وهِيَ تَحملُ وَليدًا لَها، قالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لهُ، فلقَدْ دفَنْتُ ثلاثةً -أي: دفَنْت ثلاثةً قبلَه، لا يَعيشون- قالَ رسولُ الله ﷺ: «دَفَنْتِ ثَلَاثَةً؟» قالَتْ: نعَمْ. قالَ: «لَقَدِ احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ مِنَ النَّارِ»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد، رقم (٢٦٣٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاءَ في «سُنن التِّرمِذيِّ» مِن حَديثِ أَبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. قَالَ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[1].

يَا صَاحِبَ الهَمِّ إِنَّ الهَمَّ مُنْفَرِجٌ ... أَبْشِرْ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الفَارِجَ اللهُ

إِذَا بُلِيتَ فَثِقْ بِاللهِ، وَارْضَ بِهِ ... إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ البَلْوَى هُوَ اللهُ

اليَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ ... لَا تَيْئَسَنَّ فَإِنَّ الكَافِيَ اللهُ

اللهُ يُحْدِثُ بَعْدَ العُسْرِ مَيْسَرَةً ... لَا تَجْزَعَنَّ فَإِنَّ القَاسِمَ اللهُ

واللهِ مَا لَكَ غَيْرُ اللهِ مِنْ أَحَدٍ ... فَحَسْبُكَ اللهُ فِي كُلٍّ لَكَ اللهُ[2]

هذه وَصيَّتي الأُولى، أيُّها المصابُ تَذكَّرْ ما أعَدَّه اللهُ لكَ مِنَ الأجرِ والثوابِ.

الوصيَّةُ الثانيةُ: اعلَمْ أنَّ موتَ حَبيبِك وقَريبِك قَدْ كتبَه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِندَه في كِتابِه قبلَ أن يَخلقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألفَ سَنةٍ، هكَذا أَخبَرَنا نَبيُّنا محمدٌ ﷺ، فقَدْ جاءَ في «صَحيح مُسلمٍ» مِن حَديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٥)، والترمذي: كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، رقم (١٠٢١).

(٢) الأبيات تنسب للقاضي ابن الغماز البلنسي، انظر: حاشية د.إحسان عباس على نفح الطيب (٤/ ٣١٦). وهي في المحاسن والأضداد للجاحظ (ص: ١٥٧)، وأدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ٢٩٧)، غير منسوبة.

قالَ ﷺ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»(١).

أي: كتَبَ يَموتُ فلانٌ، ويُسافرُ فلانٌ، ويَخسرُ فلانٌ في تِجارتِه، ويَتزوَّجُ فلانٌ مِن فُلانةٍ، ويُنجِبُ مِنها كَذا وكَذا. فإذا علمَ العبدُ بِهَذِه الحقيقةِ اطمأَنَّ وارتاحَ.

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ الحديدِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٣].

فما عليكَ إلَّا أن تَستسلمَ لِما كُتِبَ في المقاديرِ، وتَرضَى بِما نزلَ عليكَ، وأبشِرْ بعدَ التسليمِ والرِّضا بالأَجرِ، فقَدْ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»(٢).

قالَ شُريحٌ القاضِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنِّي لأُصابُ بالمصيبةِ فأَحمدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ علَيْها أربعَ مرَّاتٍ: أحمَدُه سُبحانَه إذ لم تَكُنْ أعظمَ مِمَّا هيَ عليهِ، وأحمدُه سبحانَه أن رَزَقَني الصبرَ علَيْها، وأحمَدُه سُبحانَه أن وفَّقَني للاسترجاعِ لِمَا أَرجو فيهِ منَ الثوابِ، وأحمدُه سُبحانَه إذ لم تَكُنْ في دِيني، فإنَّ مِن كلِّ شيءٍ عِوَضا إلَّا الدِّينَ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٩٥٠٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/ ٤٢).

إِنِّي مُعزِّيــكَ لَا أَنِّي عَــلَى ثِقَــةٍ مِــنَ البَقَــاءِ، وَلَكِــنْ سُــنَّةُ الــدِّينِ
فَــمَا المُعــزِّي بِبَــاقٍ بَعْــدَ صَــاحِبِهِ وَلَا المُعزَّى وَإِنْ عَاشَ وَلَـوْ حِـينِ[(١)]

الوصيَّةُ الثالِثةُ: إذا أخَذْت بها أيُّها المُبتَلَى والمصابُ موقنًا بها، وعمِلْت بها وأنتَ على يَقينٍ، أبدَلَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى ما تَجدُ مِنَ الهمِّ والحزَنِ فرحًا، هكَذا أخبَرَنا رَسولُ اللهِ ﷺ، فقَدْ قالَ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُمَا فَرَحًا**»، قالوا: يا رسولَ اللهِ أفنَتَعَلَّمُها؟ قالَ: «**يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»[(٢)].

أي: يَنبغي لِمَن سمِعَ هذا الدعاءَ أن يَحفظَه ويَتعلَّمَه ويَعملَ بِهِ، إنَّه العلاجُ الناجعُ لصاحِبِ الهمِّ والحزنِ.

* * *

(١) ديوان الشافعي (ص: ١٠٢)، ومناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٩٠). ونسبه ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (١٧/ ٤٠) لابن المعتز.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢٣)
تَقدَّمْ ولا تَتأخَّرْ

الناسُ صِنفانِ: صِنفٌ أبصرَ الخيرَ فتَقدَّمَ إليهِ وهوَ يَرجو النجاةَ والفلاحَ، وصِنفٌ أبصَرَ الخيرَ ولكِنَّه تَأخرَ عَنه واختارَ الشرَّ، فهَذا يُخشَى عليهِ مِنَ الهلاكِ.

وقَدْ بيَّنَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شأنَ الصِّنفينِ، فقالَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: ٣٢- ٣٧].

قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرِه: «أي: لِمَنْ شاءَ أن يَقبلَ النذارةَ ويَهتدِي للحقِّ، أو يَتأخَّرَ عنها ويُولِّيَ ويَردَّها»(١).

وقالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «مَدارِجِ السالِكِينَ»: «فإن لم يكُنْ في تَقدُّمٍ فهوَ متأخِّرٌ ولا بُدَّ، فإنَّ العملَ سائرٌ لا واقفٌ، فإمَّا إلى فوقُ، وإمَّا إلى أسفلُ، إمَّا إلى أَمامٍ وإمَّا إلى وَراءٍ، وليسَ في الطبيعةِ ولا الشريعةِ وقوفٌ البتَّةَ»(٢).

وصدَقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فليسَ ثَمَّ أمامَ العبدِ وقوفٌ البتَّةَ، فإمَّا أن يَتقدَّمَ، وإمَّا أن يَتأخَّرَ؛ لأنَّ الواقفَ ميتٌ، لا تطيبُ حياتُه، ولا تطيبُ حياةُ الحيِّ إلَّا إذا تحرَّكَ،

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٧٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٧٨).

وقد صاغَ الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذهِ الحقيقةَ في قَصيدةٍ طويلةٍ، قالَ في بعضِها:

إِنِّي رَأَيْتُ وُقُوفَ المَاءِ يُفسِدُهُ ... إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ

وَالأُسْدُ لَوْلَا فِرَاقُ الأَرضِ مَا افْتَرَسَتْ ... وَالسَّهْمُ لَوْلَا فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ

وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ فِي الفُلْكِ دَائِمَةً ... لَـمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ[1]

وأيُّ تَقدُّمٍ يَتقدَّمُه العبدُ أو تأخَّرَ يَجِدُ نتيجتَه يومَ القيامةِ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار: ١- ٥].

أي: علِمَ العبدُ ما قدَّمَ حينَما تقدَّمَ، وعلِمَ بِما أخَّرَ حينَما تأخَّرَ.

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ٧- ١٣].

فلا وقوفَ، فإذا تَحرَّكَ فلْيَتحرَّكْ إلى الأمامِ، ولتكُنْ عينُه تنظرُ إلى الأمامِ، إلى مَيادينِ العِزِّ، والمروءةِ، والعطاءِ، والتَّضحيةِ والفداءِ، والبِرِّ والإحسانِ.

واعلَمْ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعَلَ الخيارَ بأَيدينا، فإمَّا أن نَختارَ أن نَتقدَّمَ، أو نَختارَ أن نَتأخَّرَ، والإنسانُ مُكلَّفٌ باختيارِ ما يُريدُ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أَعطانا آلاتِ الاختيارِ: أَسماعًا، وأبصارًا، وعُقولًا، وأنزلَ لَنا كتُبًا، وأرسلَ لَنا رُسلًا، وأبانَ لَنا الطريقَ، وقالَ: بيدِكَ الاختيارُ.

---

(١) ديوان الشافعي (ص: ٣٦).

وقَدْ قالَ اللهُ تَعالى في سُورةِ الكهفِ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: فمَن شاءَ فلْيَتقدَّمْ نحوَ الإيمانِ، ليَكونَ في ميادينِ المُؤمِنينَ، ومَن شاءَ فلْيَكفُرْ ويَتأخَّرْ معَ الكافِرينَ.

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٢- ٣]، أي: بيَدِه أن يَختارَ أن يكونَ مِنَ الشاكِرينَ فيتقدَّمَ إلى ميادينِ الشُّكرِ والثناءِ، وإمَّا أن يَكونَ مِنَ الجاحِدينَ فيَتأخَّرَ؛ فيَكونَ في مَيادينِ الكُفرِ والجحودِ.

والخيارُ بأَيدِينا، هكَذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ، فقَدْ جاءَ في حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ وهو يُخاطبُ كَعبَ بنَ عُجرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ بَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا**»(١)، أي: إمَّا أن يَختارَ أن يُعتِقَ هذهِ النفسَ فيَتقدَّمَ معَ مَن تقدَّمَ، أو يُوبِقَها فيكونَ معَ المتأخِّرينَ.

وقَدْ حَبانا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بشرعٍ عظيمٍ، عظَّمَ في نفوسِنا فضلَ التقدُّمِ، ومعاليَ الأمورِ، وعظَّمَ في نُفوسِنا أشرافَ الأمورِ، وحقَّرَ في نفوسِنا سفاسفَها ورَديئَها وحَقيرَها، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا**»(٢)، والسفاسفُ مِنَ الأمورِ هيَ الرديئةُ الحَقيرةُ الدَّنيئةُ.

وكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يُربِّينا على السعيِ نحوَ الأمامِ، فكانَ مِن دُعائِه في

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٣١، رقم ٢٨٩٤)، من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القنوتِ: «اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ»[(١)].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حَديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عندَ الطبرانيِّ: «وَمَا مِنْ خُطْوَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ خُطْوَةٍ مَشَاهَا رَجُلٌ إِلَى فُرْجَةٍ فِي صَلَاةٍ فَسَدَّهَا»[(٢)].

فتقدَّمْ إلى الصفوفِ الَّتي في المُجتمعِ وتُوجدُ بها ثَغراتٌ كَثيرةٌ فسُدَّها.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ أيضًا: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْمُتَقَدِّمَةِ»[(٣)]؛ لأنَّ لها فضلًا.

فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُربِّينا على حبِّ التقدُّمِ والطموحِ والعلوِّ، فقَدْ ذكرَ الجَنةَ يومًا مِنَ الأيامِ، وذكَرَ ما أَعدَّهُ اللهُ للمُجاهِدينَ، فقالَ: «إِنَّ لِلْمُجَاهِدِينَ مِائَةَ دَرَجَةٍ، بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالْأُخْرَى كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[(٤)].

وحينَما أَرشَدَنا ﷺ كما في «صَحيح البُخاريِّ»، قالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ»[(٥)].

فلْيَكُنْ طموحُك هناكَ إلى الفردوسِ؛ تَربيةً على التقدُّمِ، والطموحِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل رقم (٨٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢١٠)، عن خالد بن أبي عمران مرسلًا، وقد روي عن عمر بن الخطاب موقوفًا؛ أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٤٩٦٨)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٧١٠٠)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١١٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٥٢١٧).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الإمامة، باب كيف يقوم الإمام الصفوف، رقم (٨١١)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر التخريج السابق.

لِذا حينَما يَأتي عمَلُك في قبرِك فإنَّه أولُ ما يُذكِّرُك بذلكَ، يَقولُ: أنا عمَلُك الصالحُ؛ كنتَ سَريعًا في طاعةِ اللهِ، بَطيئًا عَن مَعصيةِ اللهِ، فجَزاكَ اللهُ خيرًا. ويقولُ للآخرِ الَّذي تَأخَّرَ: أنا عمَلُك الخبيثُ، كنتَ بَطيئًا في طاعةِ اللهِ، سَريعًا في معصيةِ اللهِ، فجَزاكَ اللهُ شرًّا.

وليسَ العِبرةُ -كما قُلتُ- بالحركةِ فحسبُ، بَلْ لا بُدَّ أن تَكونَ هَذهِ الحركةُ إلى الأمامِ، إلى ميادينِ العِزِّ والفخرِ الَّذي تَخدمُ بها نفسَك ودِينَك ووطَنَك ومُجتمَعَك، والَّذي تُحصِّلُ مِن خِلالِه الدرجاتِ العُلى، وليسَ بالضرورةِ أن نَكونَ كلُّنا في مَيدانٍ واحدٍ، فإنَّ طباعَنا وقُدراتِنا تَختلفُ، ولا تحاوِلْ أن تُقلِّدَ غيرَك في مَيدانِه الَّذي تَميَّزَ فيهِ، فقَدْ أَعطاكَ اللهُ مِنَ الطاقةِ خِلافَ ما أعطاهُ، ووهَبَك منَ المواهبِ خِلافَ ما وهَبَه، فإذا برَزَ هوَ في مَيدانِ العلمِ رُبَّما تَبرزُ أنتَ في ميدانِ الإنفاقِ والسخاءِ والعطاءِ، وآخرُ في مَيادينَ أُخرَى.

ولقَدْ جاءَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مُبرَزينَ في كلِّ مَيدانٍ، فصَحابيٌّ في مَيدانٍ، وآخرُ في ميدانٍ آخرَ، وقد شهِدَ لَهُمُ النبيُّ ﷺ جَميعِهم بالتقدُّمِ، ولكِنِ اختلفَتْ مَياديُنهم، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ عَن بَعضِهم: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهُ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ**»[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨١)، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، رقم (٣٧٩٠، ٣٧٩١)، وابن ماجه: في مقدمة السنن، باب فضائل زيد بن ثابت، رقم (١٥٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا الَّذي يُريدُه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَّا جميعًا، أن نَكونَ في صُفوفِ المُتقدِّمينَ.

قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «احْضُرُوا الذِّكْرَ، وَادْنُوا مِنَ الإِمَامِ»، وهي صُورةٌ مِن صُورِ التقدُّمِ، «فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَتَبَاعَدُ حَتَّى يُؤَخَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ دَخَلَهَا»[1].

وفضيلةُ التقدُّمِ قد تَكُونُ بينَك وبينَها عوائقُ، وقد تَكونُ هذهِ العوائقُ عوائقَ حَقيقيةً، وبعضُها قَدْ يكونُ عوائقَ وَهميةً صنعَها الإنسانُ بنفسِه، وعائقُ الوهمِ أشدُّ خَطرًا منَ العائقِ الحَقيقيِّ، وفي كِلا الأَمرَيْن لا بُدَّ أن تَمضِيَ، وكلَّما صعُبَتِ الأمورُ كثُرَتِ الأجورُ، وكُنْ كَما قالَ الأوَّلُ:

تَبَسَّمْ تَبَسَّمْ وَخَلِّ الهُمُومْ — وَخَلِّ الغُمُومَ وَخَلِّ الضَّجَرْ
وَلَا تَبْتَئِسْ مِنْ صُرُوفِ الزَّمَانْ — وَلَا تَشْتَكِي مِنْ طُعُونِ البَشَرْ
وَلَا تَكْتَئِبْ إِنْ بَدَا عَائِقٌ — فَعُقْبَى الغَمَامِ نُزُولُ المَطَرْ
إِذَا المَرْءُ يَوْمًا أَرَادَ العُلَى — فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحِثَّ السِّيَرْ
وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَلِذَّ الرُّكُودْ — تَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَرْ
تَبَسَّمْ تَبَسَّمْ، فَإِنَّ الحَيَاةْ — تُرِيدُ التَّبَسُّمَ، وَتَأْبَى الكَدَرْ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدنو من الإمام عند الموعظة، رقم (١١٠٨)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٤)

الانفلاتُ اللَّفْظيُّ

أيُّ مُجتمعٍ تُهدِّدُه أخطارٌ، وإنَّ مِنَ الأخطارِ الَّتي تُهددُ مُجتمعَنا هذا الانفلاتَ اللفظيَّ الَّذي نَراهُ على أرضِ الواقعِ، وكَما أنَّ الأُممَ تُبتلَى أحيانًا بانفلاتٍ أَمنيٍّ، فإنَّها تُبتلَى أيضًا بانفِلاتٍ أَخلاقيٍّ، أو انفِلاتٍ لفظيٍّ كما نَراهُ اليومَ عَلى مَواقعِ التواصُلِ، وكَما نُشاهِدُه مِن تَراشقٍ، وهَذا أمرٌ خَطيرٌ؛ يُفضِي في النهايةِ إلى الانفِلاتِ الأَمنيِّ.

وعلى كلِّ غَيورٍ مُخلصٍ في موقعِ صُنعِ القرارِ أن تَكونَ له كلمةٌ في وَقفِ مِثلِ هَذا الانفلاتِ، وقد حذَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن هذا الانفلاتِ الَّذي يَكونُ مَردُّه إلى هذا اللسانِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وجعلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن هَذا القولِ قَولينِ: قولًا يرفعُ صاحِبَه إلى أعلى الجِنانِ، وقولًا به تَتنزَّلُ على صاحبِهِ اللعناتُ.

وقالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الفريقِ الأوَّلِ: ﴿ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٥]، وقالَ عَنِ الفريقِ الآخَرِ: ﴿ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقد جعَلَ النبيُّ ﷺ مِن علاماتِ المؤمنِ إمساكَه للسانِه فقالَ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[(١)].

وخلعَ على المسلمِ صفةً ظاهرةً بيِّنةً فقالَ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[(٢)] فقدمَ اللسانَ قبلَ اليدِ.

وجاءَ مُعاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ» فأخبَرَه رسولُ اللهِ ﷺ بالأمرِ الَّذي يُنجيهِ مِنَ النارِ في مَسائلَ مُتعدِّدةٍ، ثُم خَلَصَ بهِ أَنْ قالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى «فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا» فقُلْتُ: «يَا رسولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ» قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[(٣)].

فهؤلاءِ الَّذينَ أَطلَقوا لهذهِ الأَلسُنِ، أو هَذه الأقلامِ، أو هذهِ الأصابعِ لتكتُبَ ما تَشاءُ، فتَتعرَّضُ لرموزِ المجتمعِ مِن وُلاةِ الأمرِ، ورِجالاتِه، وأَبنائِه المُخلِصينَ الَّذينَ أَسَّسوا هَذا المجتمعَ، فيَلمِزون به ويَضرِبونهُ على مَرأَى ومَسمعٍ مِنَ العالَمِ كلِّه، فأيُّ انْحِدارٍ هَذا!!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (١٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

وإنَّ مِن أَبرزِ مَظاهرِ هَذا الانفلاتِ اللَّفْظيِّ: الحُكمَ على الآخَرينَ بالكُفرِ أوِ الإيمانِ، والحُكمَ للآخَرينَ بالجَنةِ أوِ النارِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هوَ وحدَه الَّذي لهُ الحُكمُ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فكيفَ يَتجرَّأُ هذا الإنسانُ ويَقولُ: فلانٌ في الجَنةِ؛ لأَنَّه أَحبَّه، ولأَنَّه مِن فَريقِه، وفلانٌ في النارِ؛ لأَنَّه أبغضَه، وهوَ مِن أَعدائِه، هذا ليسَ لهُ، هذا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقد دخَلَ النبيُّ ﷺ في يومٍ على عُثمانَ بنِ مَظْعونٍ -صحابيٌّ جليلٌ مُهاجرٌ هاجَرَ إلى المدينةِ، فماتَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المدينةِ- فجاءَهُ النبيُّ ﷺ بعدَ موتِه ولَمَّا يُلحَّدْ بعدُ، فلمَّا دخلَ إلى بيتِه قالَت أُمُّ العلاءِ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ: لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ»، فالتَفَتَ إليها النبيُّ ﷺ ثُم قالَ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟**» لأنَّ هذا عِلمُه عندَ اللهِ، «**أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَرْجُو لَهُ الخَيْرَ مِنَ اللهِ**»، ثُم قالَ النبيُّ ﷺ: «**وَاللهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ**»[(١)].

ثُم بعدَ ذلكَ يَأتي إنسانٌ دَعيٌّ يَضربُ بالغيبِ فيُدخِلَ هذا الجَنةَ، ويُخرجُ ذاكَ مِنها، إنَّ هذا شيءٌ مِن الانفلاتِ؛ لذا يَقولُ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفُسُوقِ وَلَا يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه، رقم (١٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن، رقم (٦٠٤٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ: «وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ»[١] هذه صورةٌ مِن هَذا الانفِلاتِ.

وهناكَ صورةٌ أُخرى -وتَأتي تبعًا لهذا الأمرِ- وهيَ: الرميُ بالبُهتانِ، والرميُ بالزورِ، واتِّهامُ الآخَرينَ، والنبشُ في ملفاتِ الماضِي، وإلصاقُ التُّهمِ، وهَذا مِن أخطرِ الأُمورِ الَّتي تُهدِّدُ المُجتمعَ.

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كِتابِه الكريمِ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢] وليسَ هُناكَ أوضحُ مِن هذا القولِ!

وفي سُورةِ الأحزابِ يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»[٢].

وقالَ أيضًا: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ، أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»[٣].

فالعاقلُ هوَ الَّذي يَحفظُ هذا اللسانَ، ويَحفظُ هذه الجوارِحَ، فلا يكونُ شيئًا مِنها سببًا في إيذاءِ الآخَرينَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل، رقم (٦١٠٥)، من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم (٤٨٨٣)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٧٠)، وأبو داود: كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة، رقم (٣٥٩٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومِن صُورِ هذا الانفلاتِ اللفظيِّ؛ ذلكَ السبابُ والشتمُ على مَواقعِ التواصلِ، وكأنَّك تَقرأُ لأناسٍ لم يَعيشوا في مُجتمعٍ مُسلمٍ، ولم يَسمَعوا بمَوعظةٍ، ولم يَقرَؤوا القرآنَ الَّذي ربَّى هذهِ الأُمةَ على سلامةِ هذا اللسانِ كسَلامةِ هذا المعتقدِ.

وقَدْ حذَّرَ النبيُّ ﷺ مِن هَذا الأمرِ أشدَّ التحذيرِ، فقالَ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(١).

وقد يَعيشُ بعضُ الناسِ عَلى السبِّ والشتمِ؛ لذا تَجدُ الحديثَ المشهورَ المعلومَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لصحابتِه الكِرامِ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا. فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(٢).

هذا هوَ المُفلسُ، نعَمْ نَراهُ في عِدادِ المصلِّينَ، ونَراه في حملاتِ الحجِّ والعمرةِ، ونَراهُ في الطوابيرِ الأُولى وهو يُؤدِّي الزكاةَ، لكِنَّه لم يحصِّنْ هذا اللسانَ مِن لَزِ الآخَرينَ، فيَأتي لسانُه هذا على تِلكَ الحسناتِ ويَحصدُها حصدًا حتَّى يكونَ مُفلسًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد وضَعَ لَنا النبيُّ ﷺ منهجًا فقالَ: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[(١)]، وفي روايةٍ: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ»[(٢)].

بل ذهَبَ بنا النبيُّ ﷺ إلى ما هوَ أبعدُ مِن ذلكَ فقالَ: «لَا تَسُبُّوا الشَّيْطَانَ، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهِ»[(٣)].

هكَذا يُربِّينا النبيُّ ﷺ على سلامةِ هذا اللسانِ، ولكِنَّ البعضَ قد غرَّه شيءٌ مِن فُتات الدُّنيا، وغرَّهُ شيءٌ مِن هَذهِ الغَفلةِ الَّتي استَحكَمَت في قَلبِه، فكانَ لزامًا عليَّ وعلى غيري أن نُعيدَ الذِّكْرَ والتذكيرَ بمِثلِ هذه المسائلِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم (١٣٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٢)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشتم، رقم (١٩٨٢)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو طاهر المخلص في المخلصيات رقم (١٥٧٢، ١٩٠١)، وتمام في الفوائد رقم (٧٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٥)

خُلقُ السترِ

خُلقُ السترِ خُلقٌ عظيمٌ كريمٌ، وهو خُلقُ الأنبياءِ، والأتقياءِ، والعُظماءِ أهلِ النقاءِ، وهوَ جوهرٌ نفيسٌ، وهو خُلقٌ يُحبُّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهوَ للهِ طاعةٌ وإحسانٌ، ودِينٌ وقُربانٌ، وهوَ خُلقٌ تُحفظُ بِهِ المُجتمعاتُ في كِيانِها، وفي طُهرِها، وفي عفافِها.

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ كما جاءَ عندَ النسائيِّ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ»(١).

فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ستيرٌ، يُحبُّ الحياءَ والسترَ، فيسترُ على عِبادِه في الدُّنيا، ويسترُ علَيْهم في الآخِرةِ.

وقد أخبرَ بهذا النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وسلَّمَ، فقَدْ جاءَ عندَ البخاريِّ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ» أي: يومَ القيامةِ «حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ» أي: يَضعَ سِترَه عليهِ. وهذا من سِترِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ أنَّ العبدَ الَّذي ستَرَ على نفسِه الذنوبَ في الدُّنيا، يسترُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليهِ في الآخرةِ، فيُحاسبُه حسابًا لا يُبصرُه الناسُ، ولا يَسمعُ بِه الناسُ؛ لأنَّه جاءَ في كنَفِ الرحمنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٤)، وأبو داود: كتاب الحمام، باب النهي عن التعري، رقم (٤٠١٢)، والنسائي: كتاب الغسل، باب الاستتار عند الاغتسال، رقم (٤٠٦)، من حديث يعلى بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«فَيَقُولُ: أعَمِلْتَ كَذَا وكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. ويقولُ: عَمِلْتَ كَذَا وكَذَا؟ فيَقولُ: نَعَمْ. فيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[(١)].

وخُلقُ السِّترِ هو خُلقُ الأنبياءِ، فقَدْ جاءَ في صَحيح البخاريِّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلا حَيِيًّا سِتِّيرًا»[(٢)].

وهو أيضًا خُلقُ الصالِحينَ، فقَدْ قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ المعارجِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المعارج: ٢٩- ٣١].

فمَن انحَرَفَ عن هَذا الخُلقِ، واتَّجَهَ إلى ما يضدُّه مِنَ الأخلاقِ، وهو إشاعةُ الفواحشِ، وهَتكُ الأستارِ، ونَشرُ الأسرارِ، فقَدْ وقعَ في ظلمٍ عظيمٍ، وقد حذَّرَ المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن هَتكِ الأستارِ، وإشاعةِ الفواحشِ، فقالَ في آيةٍ عظيمةٍ في سُورةِ النورِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولْنَتأمَّلْ هذه الآيةَ، وهذا الوعيدَ، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيةِ لم يَتوعَّدِ الذينَ يَفعَلون الفاحشةَ، ولا الَّذينَ يُشيعون الفاحشةَ، وإنَّما تَوعَّدَ الَّذينَ يُحِبُّون أن تَشيعَ الفاحشةَ، الَّذي يُحبُّ أن تُنشَرَ أسرارُ فُلانٍ، وأن تُكشفَ أسرارُ فلانٍ، ويُحبُّ أن يَسمعَ بالفضائحِ؛ لذا تَجِدُه دائمَ البحثِ عَن فَضائحِ الآخرينَ؛ فإذا وجَدَ حسابًا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٦٠٧٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم (٣٤٠٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«فضائحَ الفُلانِيِّينَ» طارَ به وطارَ إليهِ؛ لأنَّه يَبحثُ عَن ذلكَ، ويُحبُّ إشاعةَ الفاحِشةِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فكيفَ بالَّذي يُشيعُ الفاحِشةَ، وكيفَ بالَّذي يَفعلُ الفاحِشةَ.

ثُم إنَّ المولَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيَّنَ لوازمَ إشاعةِ الفاحشةِ، وحذَّرَ مِن الاقترابِ مِنها؛ أي: حَذّرَ مِنَ البحثِ عَن ثَغراتِ الآخَرينَ، ومِن تَتبُّعِ الزلَّاتِ، ومِنَ الكشفِ عَن الأخطاءِ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الحُجراتِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

انظُرْ هذا التدرُّجَ؛ فمَنْ أساءَ الظنَّ جزمًا يتجسسُ، ومَن تَجسَّسَ جزمًا يقَعْ في الغيبةِ، ومَن وقعَ في الغيبةِ فكأنَّما أكَلَ لحمَ أخيهِ ميتًا.

فإساءةُ الظنِّ يُتبعُها التجسُّسُ، والبحثُ عَن عَوراتِ الآخَرينَ، والتفتيشُ في ملفَّاتِهم القديمةِ، هكَذا يَفعلُ بعضُ الناسِ، طبعُه البحثُ عَنِ العثراتِ، والبحثُ عَن الزَّلَّاتِ؛ لعلَّه يَجدُ تَسجيلًا قديمًا لفُلانٍ فيَنشرُه في الناسِ، أو يَجدُ تَغريدةً أخطَأَ فيها فلانٌ، يَبحثُ عَنها ليلَ نهارٍ حتَّى يَجدَها، أو رُبَّما وجدَ مُحادثةً بينَ فلانٍ وفلانٍ فصوَّرَها واحتفَظَ بِها، والآنَ وقتُ نَشرِها، وهذا طبعُ الآثِمينَ.

وقَدْ صعِدَ رسولُ اللهُ ﷺ يومًا إلى المنبرِ -كما يَقولُ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ونادَى بصوتٍ رفيعٍ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ

«تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»[١].

لكِنَّ بعضَ الناسِ قد زيَّنَ له الشيطانُ، وزيَّنَت له نَفسُه هذا العملَ فبرَّرَ فعلَه أنه يُريدُ الإصلاحَ، ويقولُ: أنا أقصدُ الإصلاحَ، أبحثُ عنِ العثراتِ، وأبحثُ عَن الزلَّاتِ بقَصدِ الإصلاحِ، وهَذا ليسَ بمُصلحٍ، بل هذا مُفسدٌ.

وقد سمَّى رسولُ اللهِ ﷺ فعلَه: إفسادًا، فقالَ -كما جاءَ في سُنَن أبي داودَ-: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»[٢].

لذا جاءَتْ أحاديثُ كثيرةٌ جدًّا تُرغِّبُ في السترِ على النفسِ، والسترِ على الآخَرينَ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ -كما جاءَ في سُنن ابنِ ماجَهْ- مِن حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» أي: رأَى عَورتَه، أو عَثرتَه، أو زَلَّتَه، هوَ يعلمُ بِها يقينًا فستَرَها، «سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٣].

وقالَ أيضًا ﷺ -كما جاءَ في صَحيح مُسلمٍ- مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[٤].

وقالَ أيضًا ﷺ -كما جاءَ في صَحيح مُسلمٍ-: «لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم (٢٠٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الستر على المسلم، رقم (٤٨٨٨)، من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الحدود، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات، رقم (٢٥٤٦).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب بشارة من ستر الله تعالى عيبه في الدُّنيا، رقم (٢٥٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حتَّى الميتُ إذا جاءَ المغسِّلُ ليُغسِّلَه وجَبَ عليهِ أن يَستُرَ ما رأَى مِنه، فقَدْ يكونُ في الإنسانِ عيبٌ خُلقيٌّ لا يُريدُ أن يَطلعَ عليهِ أحدٌ، لكِنَّه إذا ماتَ فقد يَراهُ هذا المُغسلُ، فوجَبَ عليه أن يَستُرَه، فإذا رأَى هذا المُغسلُ مِن سوءِ خاتمةِ هذا الإنسانِ مِن سوادِ وجهٍ، أو ثُقلِ جِسمٍ، أو غيرِ ذلكَ، وجَبَ عليهِ أن يَستُرَه ولا يَتكلَّمَ.

وقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ وهوَ يَحفظُ لَنا عِرضَ هذا الميتِ -والحديثُ عِندَ الطبَرانيِّ في المُعْجَم الكَبِير- قالَ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَسَتَرَهُ؛ سَتَرَهُ اللهُ مِنَ الذُّنُوبِ»(١).

وفي روايةِ الحاكمِ: «مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غُفِرَ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً»(٢).

فأَخلاقُ العظماءِ أن تَكونَ سِترًا مبالغًا في السِّتر على الآخَرينَ، وما منَّا مِن أحَدٍ إلَّا ويذكرُ قصةَ ماعِزِ بنِ مالكٍ بمُقتَضَى بشَريَّتِه وقعَ في الخطَأ وزَنى فضاقَتْ عليه الدُّنْيا، فذهبَ إلى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالَ: ماذا أَفعلُ؟ قالَ له أَبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ: استُرْ على نَفسِك واذهَبْ إلى بيتِك. فذهَبَ إلى عُمرَ وقالَ: لقَدْ وقَعْت في الزِّنا ماذا أفعلُ؟ قالَ: استُرْ على نفسِك واذهَبْ إلى بيتِك. ثُم ذهَبَ إلى رجلٍ ثالثٍ مِن عَشيرتِه، يُقالُ له: هَزالٌ. قالَ: يا هَزالُ، وقَعْت في الزِّنا ماذا أفعلُ؟ قال: اذهَبْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ واعتَرِفْ بذَنبِك. ولم يُشِرْ عليهِ بِمَشورةِ أَبي بَكرٍ ولا عُمرَ.

فجاءَ ماعزٌ يَعترفُ بذَنبِه، فردَّه رسولُ اللهِ ﷺ، ثُم جاءَه مرَّةً أُخرى، فأرسلَ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٨١، رقم ٨٠٧٧)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥٤)، والبيهقي في الشعب رقم (٨٨٢٧)، من حديث أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إلى أهلِه هل يَشتكِي مِن عقلهِ في شيءٍ، قالوا: هوَ صحيحٌ. فأقامَ عليه الحدَّ ورجَمَه ﷺ، ولكِنْ للقِصَّةِ تَبعٌ.

وتبَعُها؛ أنَّه نادَى هزالًا وقالَ: «**يَا هَزَّالُ، لَوْ سَتَرْتَهُ بِرِدَائِكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ**»[(١)]، أي: لَوْ أنَّك رأيتَه يَفعلُ هذهِ الفاحشةَ فسترْتَه بثَوبِك كانَ خيرًا لكَ.

وقَدْ قالَ الخَليفةُ الأوَّلُ صِدِّيقُ هذهِ الأُمةِ أبو بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ لم أجِدِ للسارقِ، والزانِي، وشارِبِ الخمرِ إلَّا ثَوبي لأَحبَبْت أن أَستُرَه عليهِ»[(٢)] ولا يَنكشفَ سِترُه.

إنَّه يَتكلَّمُ عَن كبائرِ الذُّنوبِ: شاربِ خَمرٍ، وسارقٍ، والزانِي!

والسببُ؛ أنَّ المؤمِنَ لا يَبحثُ عنِ الزَّلَّاتِ، ولا يَبحثُ عَنِ العثراتِ، فإذا رأَى المَحاسنَ أَشاعَها، وإذا رأَى المساوِئَ كتَمَها، ونصَحَ صاحِبَها.

قالَ الفُضيلُ بنُ عِياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمنُ يَسترُ ويَنصحُ، والفاجرُ يَهتكُ ويَفضحُ»[(٣)]؛ هذا فرقٌ بينَ المؤمِنِ وبينَ الفاجرِ.

وقَدْ مَرَّ أبو الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رجلٍ قد وقعَ في ذَنبٍ وأصحابُهُ يَسُبُّونهُ، فسألَ أبو الدرداءِ عَنه قالوا: قد وقعَ في ذنبٍ، فقالَ أَبو الدرداءِ كلِمةً عظيمةً، قالَ: لا تَسُبُّوا أَخاكُم، واحمَدوا اللهَ الَّذي عافاكُمْ. قالوا لهُ: ولكِنَّه وقعَ في ذنبٍ. قالَ:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (١٣٣٤٢). وأخرجه أحمد (٥/ ٢١٦- ٢١٧)، بنحوه، وأبو داود: كتاب الحدود، باب في الستر على أهل الحدود، رقم (٤٣٧٧)، مختصرا، من حديث نعيم بن هزال.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (١٨٩٣١).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٢٥).

أرَأَيْتُم لو رأَيْتُموه قد وقعَ في بِئرٍ أَكُنْتم مُستخرجِيهِ؟ قالوا: نعَمْ. قالوا: أفلا تُبغضُهُ؟ قال: لا، إنَّما أُبغضُ عملَه، فإذا ترَكَه فهوَ أخي[(١)].

فخلقُ السترِ كما سبَقَ هوَ خُلقُ العُظماءِ، والأتقياءِ، والأنقياءِ، والأنبياءِ.

وقد ذكَرَ ابنُ قدامةَ المَقدسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «التوَّابين» قالَ: أصابَ بَني إسرائيلَ سَنةٌ وقحطٌ، فأَجدَبَتِ الأرضُ والسماءُ، فقالوا: يا مُوسَى، ادْعُ لَنا ربَّك يُنزِلْ علَيْنا الماءَ مِنَ السماءِ، فخرجَ موسَى عليهِ الصلاةُ والسلامُ بقَومِهِ، وعددُهم يَفوقُ السَّبعينَ ألفًا، يَدعو ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يُنزلَ علَيْهم المطرَ.

فأَوحَى اللهُ إليهِ: يا مُوسَى، إنَّ فيكُم رجلًا يُبارِزُني بالمعصيةِ منذُ أَربَعينَ سَنةً، فمُرْهُ فليخرُجْ مِنْكم، قالَ: كيفَ أعرِفُه يا ربِّ؟ قالَ: نادِ فيهِم. فخرجَ موسَى عليهِ الصلاةُ والسلامُ فقالَ: إنَّ اللهَ أَوحَى إليَّ أنَّ فينا مَن يَعصِي اللهَ أربَعينَ سَنةً، وهو الَّذي بسبَبِه توقَّفَتِ السماءُ عنِ القَطرِ، وإنِّي آمُرُه فلْيَخرُجْ، فنكثَ الناسُ رُؤوسَهم وهُم يَنظُرون بأعيُنِهم مَن يَخرجُ.

فعرَفَ الرجلُ نفسَهُ، وخشِيَ أن يُفتضحَ، فغطَّى رأسَه بثَوبِه ثُم قالَ: إلهي، وسيِّدي، عَصيتُك أربَعينَ سَنةً فستَرْتَنِي، وأَمهلتَنِي، وأنا اليومَ أُقبلُ عليك فاقبَلْنِي.

قالَ: فتَلبَّدَت السماءُ بالسحابِ، وفُتحَت علَيْهم كأفواهِ القِربِ، وأُمطِروا، فحمِدَ موسَى ربَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثُم قالَ: يا رَبِّي، سقَيْتَنا وما خرجَ منَّا أحدٌ! قالَ: يا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في جامع معمر رقم (٢٠٢٦٧)، وأبو داود في الزهد رقم (٢٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٥)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٢٦٤).

مُوسَى، لقَدْ سقَيْتُكم بالَّذي بهِ مَنَعْتُكم. قالَ: ربِّي، أَرِني هذا الطائعَ، أَعرفُه. قال: يا مُوسَى، لم أَفضَحْه وهو يَعصيني، أَأفضَحُه بعدَ أن جاءَني تائبًا[1].

فالسترُ عِبادةٌ عظيمةٌ، وجَبَ على كلِّ مُؤمنٍ أن يَتخلَّقَ بها، وأن يَبُثَّها، وأن يُشيعَها في مُجتمَعِه معَ نصحِهِ، وأمرِه بالمعروفِ، ونَهيِه عنِ المُنكَرِ.

✖ ⌑ ✖

(١) انظر: التوابين لابن قدامة (ص: ٥٥- ٥٦).

(٢٦)

لأَجْلِ هَذا أُصلِّي

جاءَ في كتابِ «الزُّهْد» لابنِ المبارَكِ مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: مرَّ النبيُّ ﷺ على قبرٍ دُفنَ حَديثًا، فقالَ: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا فِي عَمَلِهِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»[(١)].

يُبيِّنُ لَنا النبيُّ ﷺ في هَذا الحديثِ أَهمِّيةَ وعِظَمَ أمرِ الصلاةِ. أي: لو خُيِّرَ هذا الإنسانُ المقبورُ أن يَعودَ إلى الدُّنْيا وقد دُفنَ حَديثًا، لو خيِّرَ أن يَعودَ إلى الدُّنيا بينَ أَمرَيْنِ، بينَ ركعتينِ نافِلتينِ خَفيفتَينِ، وبينَ أن يُعطَى الدُّنْيا كلَّها إلى قيامِ الساعةِ؛ لاختارَ الركعتَينِ النافِلتينِ الخَفيفتينِ؛ لأَنَّه عايَنَ في قَبرِه فَضيلةَ هذه الركعاتِ، وعايَنَ أهمِّيةَ الصلاةِ، ورأَى أثرَ تلكَ الركَعاتِ.

يُصلِّي الإنسانُ منَّا عشرَ سنَواتٍ، أو عِشرينَ سَنةً، ثُم تَرِدُ عليه خواطرُ: إلى متَى سأُصلِّي؟ ولأجلِ ماذا أُصلِّي؟ لذا نَجدُ بعضَنا مِمَّن يُصلِّي الجمعةَ يُفرِّطُ في بَقيةِ الصلواتِ المَكتوباتِ، يُصلِّي واحِدةً ويَتركُ ثلاثًا، ويُصلِّي على حسبِ الهوَى والمزاجِ، ويُصلِّي إذا فرَغَ، فإذا انشغَلَ فالصلاةُ ليسَتْ على رأسِ الأولوِيَّاتِ.

لذا سنَتحدَّثُ تَحتَ هذا العنوانِ: «لأَجْل هذا أُصلِّي».

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ١٠، رقم ٣١).

لأجلِ أنَّ الصلاةَ أهمُّ أركانِ الدِّينِ بعدَ الشهادَتينِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[(١)].

فإسلامُنا قائمٌ عَلى هذهِ الأركانِ، فإذا اختلَّ ركنٌ مِن هذهِ الأركانِ؛ اختلَّ إيمانُنا وإسلامُنا؛ لذا كانَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَكتبُ إلى عُمَّالِه ويَختمُ كتابَه بهَذهِ الجُملةِ: إنَّ أهمَّ أمرِكُم عِندي الصلاةُ، مَن حفِظَها وحافَظَ علَيْها حفِظَ دِينَه، ومَن ضَيَّعَها كانَ لِمَا سِواها مِن عملِه أشدَّ إضاعةً[(٢)].

فالَّذي لا يُصلِّي تَضيعُ بوصلتُه، فيَضيعُ أشياءَ غيرَ الصلاةِ؛ لأنَّها هيَ المِحورُ وهِيَ الركنُ الرَّكينُ.

لأَجْلِ هَذا أُصلِّي.

لأنَّها المعبَرُ إلى الفلاحِ، والبوابةُ إلى النجاحِ، أخبَرَ بذلكَ رَسولُ اللهِ ﷺ، فقَدْ قالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ فَإِنْ صَلَحَتْ» أي: أدَّاها العبدُ كما أمرَ النبيُّ ﷺ، وأدَّاها في وَقتِها، لا يُصلِّي الظُّهرَ في وقتِ العصرِ، ولا يُصلِّي العَصرَ في وقتِ المغربِ، ولا يُصلِّي المغرِبَ في وَقتِ العِشاءِ، يَتعمَّدُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٦، رقم ٦)، وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٣٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٩٣).

إخراجَ الصلاةِ عَن وَقتِها؛ لأنَّه مَشغولٌ، وقد يَكونُ هَذا الشغلُ أنَّه يُتابعُ مباراةً، أو معَ زَميلٍ في فُسحةٍ، أو في مُسابقةٍ يَتسابقُ فيها، وهيَ مُصيبةٌ!

فإذا صلَحَت صلَحَ سائرُ عمَلِه «فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ» أي: أَدَّاها ولكِنَّه أدَّاها فاسِدةً «فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»[(١)].

لذا قالَ الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ابنَ آدمَ، أيُّ شيءٍ يَعزُّ عليكَ من دينِك؟ إذا هانَت عليكَ صَلاتُك[(٢)]. فهيَ عَلى اللهِ أهوَنُ.

لأَجلِ هَذا أُصلِّي.

لأنَّها المُنجيةُ؛ فلا نَجاةَ يومَ القيامةِ إلَّا بالصلاةِ، وتَدَبَّرْ هذهِ الآياتِ الَّتي تَحدَّثَتْ عَن عذابِ تارِكِ الصلاةِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سُورةِ مَريمَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم: ٥٩].

يَقولُ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿غَيّٗا﴾: وادٍ في جهنمَ بعيدٌ قعرُه، خَبيثٌ طَعمُه[(٣)].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾ [المدثر: ٣٨-٤٣].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم (٤١٣)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، رقم (٤٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٩٠٧).

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (١٥/ ٥٧٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٢٧، رقم ٩١١١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٠٦).

كانَ إذا أذَّنَ المؤذِّنُ ذهَبَ فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ إلى المسجِدِ، وتَخلَّفْتُ أنا! هذا حالي.. لم أكُنْ مِنَ المُصلِّينَ، نعَمْ كُنتُ أُصلِّي صلاةَ الجُمعةِ، وأُصلِّي صلاةَ العيدِ، وأُصلِّي على الجنازةِ إذا حضَرَت، ولكنَّ الفرائضَ كُنتُ لا أُصلِّيها إلَّا أحيانًا بحسبِ الهوَى والمزاجِ.

قالَ أبو الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْصاني رَسولُ اللهِ ﷺ بوَصايا تسعٍ -أو قالَ: عَشرٍ- قالَ في أوَّلِها: لا تُشرِكْ باللهِ شيئًا وإن قُطِّعْت أو حُرِّقْت، ولا تَترُكَنَّ الصلاةَ المكتوبةَ مُتعمِّدًا، ومَن ترَكَها مُتعمِّدًا بَرِئَت مِنه الذمةُ»[(١)]. أي: بَرِئَت مِنه ذِمةُ اللهِ، فهوَ بعيدٌ عَن كلاءَتِه وحِفظِه ورِعايتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لأَجلِ هَذا أُصلِّي.

لأنَّ الصلاةَ حدٌّ فاصلٌ بينَ الإيمانِ والكُفرِ، هذا ليسَ قولَ عالِمٍ ولا خِطابَ خطيبٍ، بل هَذا وَحيٌ أوحاهُ اللهُ إلى نَبيِّه ﷺ الَّذي لا يَنطقُ عَن الهوَى، فقَدْ قالَ في سُنن ابنِ ماجَهْ مِن حَديثِ أَنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَيْسَ بَيْنَ العَبدِ وَالشِّرْكِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ، فَإِذَا تَرَكَهَا فَقَد أَشرَكَ**»[(٢)].

فماذا يفعلُ مَن يَسمعُ هَذا وهو لا يُصلِّي؟ وستَمضِي السِّنونَ وهذا الحديثُ ذُكِرَ إلى سلَفٍ مِن قبلِنا، انتفَعَ بِه أُناسٌ، ولم يَنتفِعْ بِهِ آخَرون الآنَ هُم في القبورِ.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (١٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (٢٠٨٠).

وفي حَديثٍ آخرَ هو حَديثُ عبدِ اللهِ بنِ بُريدةَ عِندَ الترمذيِّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[١].

فحينَما يقولُ الأبُ لابنِه: يا بُنيَّ صَلِّ؛ فما ذلكَ إلَّا لأنَّه يَخافُ عَليهِ هذا المآلَ، مآلَ الشِّركِ والكُفرِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ شَقيقٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانَ أصحابُ مُحمدٍ ﷺ لا يَرَوْن شيئًا مِنَ الأعمالِ تَركُه كُفرٌ غيرَ الصلاةِ[٢].

لأَجلِ هَذا أُصلِّي.

لأنَّ الصلاةَ نورٌ، نورٌ في وجهِك أيُّها المسلِمُ، ونورٌ في عقلِك، ونورٌ في رُوحِك، ونورٌ في عُمرِكَ وفي حياتِكَ، ونورٌ في دُنياكَ وأُخراكَ، وقد بشَّرَ النبيُّ ﷺ المُصلِّينَ المُحافِظينَ على الصلاةِ بهذا النورِ، فقالَ في حَديثِ أَبي مالكٍ الأَشعريِّ عندَ مُسلمٍ: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ»[٣]. نورٌ في كلِّ شَيءٍ.

وقالَ أيضًا ﷺ في حديثِ بُريدةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عِندَ أَبي داودَ: «بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام، رقم (٥٦١)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في جماعة، رقم (٢٢٣).

وقالَ أيضًا ﷺ -كما جاءَ عِندَ الطبَرانيِّ في مُعجمِه الأَوسطِ مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إِنَّ اللهَ لَيُضِيءُ لِلَّذِينَ يَتَخَلَّلُونَ إِلَى المَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِنُورٍ سَاطِعٍ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)].

وقالَ أيضًا -كما جاءَ في مُسنَد أَحمدَ مِن حَديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ»[(٢)].

بعدَ هَذا الكَمِّ مِن أَحاديثِ النبيِّ ﷺ وجَبَ عَلى العبدِ أن يُراجِعَ نفسَه، فإن كنتَ مِنَ المصلِّينَ فاحْمَدِ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على هذهِ النِّعمةِ، وحافِظْ علَيْها واسأَلِ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثباتَ، وإن كُنتَ الآخَرَ مِمَّنْ فرَّطَ في الصلاةِ فتَدارَكِ الوقتَ، فإنَّ الأيامَ تَمضِي، والموتَ يَتخطَّفُ الناسَ.

لأَجلِ هَذا أُصلِّي.

لأنَّ الصلاةَ مَتجرُ الحسَناتِ، فقَدِ استودعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذهِ الصلاةِ مِنَ الحسَناتِ ما لا يُحصَى، ولْنَذكِّرْ أَنفُسَنا بِحَديثَينِ عَظيمينِ لأَبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أمَّا الأولُ فعِندَ أَبي داودَ، وأمَّا الثاني فعِندَ الطبرانيِّ، أمَّا الَّذي عندَ أَبي داودَ فيَقولُ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ»، كلُّ فريضةٍ، الخمسُ فرائضَ بخَمسةِ أجورٍ، كلُّ أجرٍ كأجرِ حاجٍّ «وَمَنْ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٨٤٣)، وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال رقم (٩٣).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩).

خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى، لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ، فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا، كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»[(١)].

فَهَلْ هُناكَ أعظمُ مِن ذلكَ؟!

والحديثُ الآخرُ عِندَ الطبرانيِّ، قالَ فيهِ رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يَعْلَمَهُ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حَجَّتُهُ»[(٢)].

ولعلَّ في هذا الحديثِ شَحذًا لطُلابِ العلمِ الَّذينَ تَقاعَسوا وتَباطَؤوا وفَتَروا عن تَبليغِ دِينِ اللهِ، وتَرَكوا المساجِدَ خَاليةً مِنَ الدروسِ والعِلمِ.

وهُناكَ أَحاديثُ كُثرٍ في بَيانِ أنَّ الصلاةَ مَتجرٌ للحسَناتِ؛ ولأَجلِ هَذا أُصلِّي.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٩٤، رقم ٧٤٧٣).

(٢٧)

أَفيقوا أيُّها الشامِتونَ

الشماتةُ صِفةٌ مَذمومةٌ، وعادةٌ سيِّئةٌ مَرذولةٌ حرَّمَها الإسلامُ، وحذَّرَ مِن سوءِ عاقبتِها على الشامِتِ وعلى المجتمعِ، فالشَّماتةُ هيَ نَقصٌ في العَقلِ، وقِصرٌ في النظرِ، وهيَ الفرحُ ببَليةِ مَن تُعاديهِ ويُعاديكَ، وهيَ السُّرورُ بما يُصيبُ أَخاكَ مِنَ المصائبِ في الدِّينِ والدُّنيا، وهيَ سرورُ النفسِ بِما يُصيبُ غيرَها مِنَ الأضرارِ، وهيَ نوعٌ مِنَ السُّخريةِ، وهَذا أمرٌ مَذمومٌ مُحرمٌ في شرعِنا.

قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فإذا عرَفْت هذا فاعلَمْ أنَّ هَذا الشامتَ الَّذي يَفرحُ ويُسرُّ بأيِّ مُصيبةٍ دِينيةٍ أو دُنيويةٍ تقعُ على الغيرِ فإنَّه قد وقَعَ في أمرٍ عظيمٍ وهيَ الشماتةُ، وإنِّي أُخاطبُ هَؤلاءِ، فأقولُ لهُم: أَفيقوا أيُّها الشامِتون، وقد جَعَلْتُ هذ الخطابَ في رسائلَ:

الرسالةُ الأُولى: اعلَمْ أنَّ الشامِتَ قدِ امتَلأَ قلبُه بالعداوةِ والحسدِ، وهَذهِ عَجينةُ الشماتةِ، ومادةُ الشماتةِ العداوةُ والحسدُ، كما قالَ الرازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والشماتةُ والحسدُ مُتلازِمانِ»[(١)].

(١) تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي (٣/ ٦٤٦).

فمادةُ الشماتةِ دليلٌ على امتلاءِ القلبِ بالعَداوةِ والحسدِ.

قالَ ابنُ عاشورٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشماتةُ سُرورُ النفسِ بِما يُصيبُ غيرَها مِن الأَضرارِ، وإنَّما تحصلُ مِنَ العداوةِ والحسدِ»(١).

لذا قيلَ -وجرَى المثلُ بِما قيلَ-: «إذا رأَى الحاسدُ نعمةً بُهِتَ، وإذا رأَى عَثرةً شَمَتَ».

والحاسدُ هو الشامتُ الَّذي يَشمتُ بغَيرِه.

والحسدُ مِن أخطرِ الأدواءِ الَّتي تُهدِّدُ الإيمانَ في قلبِ العبدِ؛ لذا قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ فِي جَوْفِ عَبْدٍ الإِيمَانُ وَالحَسَدُ»(٢)، يخرجُ هذا هذا ولا بُدَّ.

وقَدْ بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ المُجتمعاتِ الَّتي تَنجو مِن داءِ الشَّماتةِ والحسَدِ تَعيشُ بخَيرٍ؛ لِذا قالَ ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا»(٣).

الرسالةُ الثانيةُ: أَقولُ فيها: إنَّ الشامِتَ الَّذي يَشمتُ بأخيهِ إذا رآهُ وقَدْ نزَلَت عليهِ بَليةٌ في نَفسِه أو في دِينِه، فإنَّه يُشمتُ بذلكَ أعداءَهُ، فأنا حينَ أَشمتُ بأَخي فإنِّي أُعطِي الفرصةَ لعَدويِّ أن يَشمتَ بِنا جميعًا، وانظُرْ هذا الخطابَ الَّذي قالهُ هارونُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأَخيهِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٩/ ١١٧).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم (٣١٠٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٤٦٠٦)، والبيهقي في الشعب رقم (٦١٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٣٠٩، رقم ٨١٥٧)، من حديث ضمرة بن ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

إذَنْ: حينَما تَنتشرُ هذه الآفةُ في المجتمعِ فيَشمتُ هؤلاءِ بهَؤلاءِ والعدوُّ يَرقبُ هذهِ الشماتةَ، فإنَّه يَشمتُ بالجميعِ؛ لذا كانَ النبيُّ ﷺ كثيرًا ما كانَ يَتعوَّذُ مِن شماتةِ الأعداءِ؛ لأنَّها مِن أشَدِّ أنواعِ الإيذاءِ.

قالَ أَبو هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَتعوذُ مِن سُوءِ القضاءِ، ومِن درَكِ الشقاءِ، ومِن شماتةِ الأعداءِ، ومِن جَهدِ البلاءِ[(١)].

بَلْ كانَ ﷺ يَدْعو ربَّه يَقولُ: «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا حَاسِدًا»[(٢)].

الرسالةُ الثالثةُ: الشامتُ بغَيرِه هوَ في حَقيقةِ الأمرِ يَتشبَّهُ بالمُنافِقينَ، فهَذهِ صِفةٌ لازِمةٌ في المنافِقِ أنَّه إذا رأَى في المؤمنِ نِعمةً تكدَّرَ وضاقَ صدرُه، وإذا رآهُ في بَليةٍ وسَيئةٍ فرِحَ بها؛ لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنِ المنافِقينَ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنَبيِّه ﷺ: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء، رقم (٢٧٠٧).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٩٣٤)، من حديث هاشم بن عبد الله بن الزبير مرسلًا.

الرسالةُ الرابعةُ: اعلَمْ أنَّ الَّذي يَشمتُ بغيرِه فإنَّه يُسبِّبُ له أشدَّ أنواعِ الأذَى، فالشماتةُ هيَ مِن أشدِّ أنواعِ الأذَى للمُؤمِنِ، نعَمْ قد لا تَراهُ يَتألَّمُ، ولكِنَّه في داخلِه يَتألَّمُ، ولا أدَلَّ على ذلكَ مِن قولِ وجوابِ أيُّوبَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وما مِنَّا مِن أحدٍ إلَّا وقَرَأَ ما حصلَ لأيُّوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومِنَ الضررِ الَّذي لحِقَ بهِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فقالَ قائلٌ: يا أيُّوبُ: ما كانَ أشدَّ عليكَ في بلائِك؟ قالَ: شَماتةُ الأعداءِ[(١)].

هَذا أخطرُ ما كانَ؛ لذا قيلَ:

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى ... فَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ[(٢)]

الرسالةُ الخامِسةُ، وهيَ أهمُّها وأخطَرُها: أنَّ الشامتَ بغَيرِه تَعودُ عليهِ شَماتتُه، إنَّها سُنةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في خَلقِه، فكما تَدينُ تُدانُ، والجزاءُ مِن جِنسِ العملِ، اعمَلْ ما شِئتَ فإنَّكَ مَجزيٌّ بهِ، قد تَشمتُ اليومَ وتَعودُ عليكَ الشماتةُ بعدَ أربَعينَ سَنةً، وهَذا الَّذي حصَلَ لابنِ سِيرينَ التابعيِّ الجَليلِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذْ ركِبَتْه الديونُ حتَّى حُبِسَ من أجلِها وهو يَقولُ: «إنِّي أَعرفُ الذنبَ الَّذي لأَجلِه وصَلَت لِما وصَلَت إليهِ. فقيلَ لهُ: يا ابنَ سِيرينَ ما هوَ؟ قالَ: عيَّرْتُ رجلًا قبلَ أربَعينَ سَنةً فقُلتُ لهُ: يا مُفلسُ»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (١٨/ ٢١٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ٣٢٤).

(٢) البيت ينسب لابن أبي عيينة المهلبي، انظر: الشكوى والعتاب (ص: ٨٨)، ولباب الآداب (ص: ١٥٩) كلاهما للثعالبي، وربيع الأبرار للزمخشري (٣/ ٣٧٩)، والآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٢١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٧١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٥٤٥- ٥٤٦).

وقالَ الحسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وقد ذكَرَ هذا الأثرَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «الزُّهْد»-: «مَن عيَّرَ أخاهُ بذَنبٍ ابتلاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِمِثلِه»[(١)].

وقالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِه «الفُروسية»: «مَن ضَحِكَ مِنَ الناسِ ضُحِكَ مِنْه، ومَن عيَّرَ أخاهُ بعمَلٍ ابتُلِيَ بِه ولا بُدَّ»[(٢)].

أيَّ نوعٍ مِن أنواعِ الشماتةِ، فقَدْ يَشمتُ الإنسانُ بآخرَ قد وقَعَ في ذنبٍ، أو في إنسانٍ سَكرانٍ أو في إنسانٍ قد وقَعَ في الزِّنا، أو في إنسانٍ قد وقَعَ في السرِقةِ، فيَقولُ: يا سارقُ، يا شاربَ خمرٍ، يا زانِي. فإذا قالَ هَذا على سبيلِ الشماتةِ عادَتْ إليهِ شَماتتُه، وهذا أمرٌ مشهورٌ.

لذا جاءَ في الأثرِ: «لا تُظهِرِ الشماتةَ بأَخيكَ، فيَرحمَه اللهُ ويَبتلِيَكَ»[(٣)].

وقالَ إمامُ دارِ الهجرةِ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَدرَكْتُ أَقوامًا بالمَدينةِ لم تكُنْ لهم عيوبٌ، فتكلَّموا في عيوبِ الناسِ فأَظهرَ اللهُ لهم عيوبًا، فتكلَّمَ الناسُ فيهِم، وأَدرَكْت أقوامًا كانَتْ لَهُم عيوبٌ فسكَتوا عَن عيوبِ الناسِ، فسكَتَ الناسُ عَن عُيوبِهم»[(٤)].

فَقُـــلْ لِلشَّـــامِتِينَ بِنَـــا أَفِيقُـــوا ... سَـــيَلْقَى الشَّـــامِتُونَ كَـــمَا لَقِينَـــا

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (١٦١٠).

(٢) الفروسية (ص: ٤٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا.

(٤) انظر: الضوء اللامع للسخاوي (١/ ١٠٦).

الرسالةُ السادِسةُ: الواجبُ في حقِّ العبدِ إذا رأَى مُبتلًى في دِينِه، أو رأَى مُبتلًى في بدَنِه، أو في عِرضِه، أو في أحدٍ مِن أهلِه، ألَّا يَشمتَ وأن يقولَ: الحمدُ للهِ، فإذا رأَيْت مُبتلًى -وما أَكثَرَ ما تقعُ أعينُنا على هؤلاءِ المُبتلَيْنَ- فقُلِ: الحمدُ للهِ. وانظُرْ ثمَرةَ قولِك: الحمدُ للهِ.

جاءَ في سُنَنِ التِّرمِذيِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ رَأَى مُبْتَلًى فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ البَلَاءُ**»[1]؛ وفي روايةٍ: «**إِلَّا عُوفِيَ مِنْ هَذَا البَلَاءِ كَائِنًا مَا كَانَ مَا عَاشَ**»[2]، أي: لم يُصَبْ بهذا البلاءِ متَى ردَّدَ هذا الدعاءَ.

وهذا هوَ الواجبُ في حقِّ المسلِمِ إذا وقَعَت عَينُه أو سَمِعَت أذنُه بلاءً ومُصيبةً وقَعَت على أَخيهِ المسلمِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا رأى مبتلى، رقم (٣٤٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا رأى مبتلى، رقم (٣٤٣١)، من حديث عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

(٢٨)

شَهرُ شَعبانَ

شهرُ شَعبانَ مِنَ الشهورِ عظيمةِ الفَضلِ، فهو ميدانٌ لتَدريبِ النفسِ وتَهيئتِها -بَلْ لتَطهيرِ النفسِ وتَنقيتِها- قبلَ شهرِ رمَضانَ، وهوَ شَهرُ مواسمِ الخيراتِ، والمسلِمُ العاقِلُ هوَ الَّذي يُبادرُ بالاستِفادةِ مِمَّا فيهِ مِنَ الخيراتِ، وحديثُنا عَن شهرِ شَعبانَ، والمسائلِ الَّتِي فيهِ، لعِدةِ أَسبابٍ، مِنها:

أولًا: لأنَّه مُقدِّمةٌ لرمَضانَ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قدَّمَ لَنا هذا الشهرَ لنَعتادَ فيهِ الخيرَ والإحسانَ، وفعلَ الصلاحِ، فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ -كما جاءَ في سُنن ابنِ ماجَهْ- مِن حَديثِ مُعاويةَ بنِ أَبي سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**الخَيْرُ عَادَةٌ، والشَّرُّ لَجَاجَةٌ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1].

فإذا اعتادَتِ النفسُ عَلى فعلِ الخيرِ انشرَحَت لهُ وتَهيَّأَت، فعوِّدْ نفسَك على الإحسانِ قبلَ شهرِ رمَضانَ، وعوِّدْ نفسَك أن تَكونَ مِن المُصلِّينَ، المُتصدِّقينَ، الصائِمينَ، الممسِكينَ عنِ الفواحشِ والمنكَراتِ، حتَّى إذا جاءَ رمَضانُ تَكونُ نفسُك قد هُيِّئَت لفِعلِ الخيراتِ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: مقدمة السنن، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢١).
وأما قوله: «وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا ..» فقد أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

ثانيًا: لأنَّه شَهرٌ يُعَدُّ مِن مواسمِ الخيراتِ، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمَرَ عِبادَه أن يُبادِروا إلى فعلِ الخيراتِ واهتِبالِ مَواسمِ الخيراتِ، وقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ كما جاءَ في حَديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِندَ الطبَرانيِّ: «**افْعَلُوا الخَيْرَ دَهْرَكُمْ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللهِ، فَإِنَّ للهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ وَأَنْ يُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ**»(١).

وفي رِوايةٍ أُخرَى وهيَ عَجيبةٌ، يقولُ فيها النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ عَزَّوَجَلَّ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا**»(٢).

فالأصلُ أنَّك تفعلُ الخيرَ، لكِنْ عندَ مواسمِ الخيراتِ تَعرَّضْ لِهَذه النفحاتِ، وبادِرْ إلَيْها؛ لعلَّكَ تُصابُ بنَفحةٍ مِن نَفحاتِ رَبِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تَشقَى بعدَها أبدًا.

ثالثًا: لأنَّه شهرٌ تُرفعُ فيه الأعمالُ إلى اللهِ، فأعمالُنا الصالحةُ وأعمالُنا السيِّئةُ تَرتفِعُ في شهرِ شَعبانَ، والعاقلُ هوَ الَّذي يَحرصُ ألَّا يُرفعَ له في شهرِ شَعبانَ إلَّا عمَلٌ صالِحٌ.

وهكَذا كانَ قُدوتُنا رسولُ اللهِ ﷺ، فلمَّا قالَ لهُ أُسامةُ بنُ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-كما جاءَ عندَ النسائيِّ- قالَ: يا رسولَ اللهِ، لم أرَكَ تَصومُ شهرًا مِنَ الشهورِ ما تَصومُ مِن شَعبانَ! فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ،**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٥٠، رقم ٧٢٠)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٨٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٢٣٣، رقم ٥١٩)، وفي الأوسط رقم (٢٨٥٦)، من حديث محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[١].

هذا وهوَ رسولُ اللهِ ﷺ يحرصُ هذا الحرصَ ويُبادرُ إلى هذهِ النفحاتِ، ويقولُ: «فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».

وتُرفعُ الأعمالُ إلى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتُعرضُ على ثلاثةِ أحوالٍ: تُرفعُ يَوميًّا، وتُرفعُ أُسبوعيًّا، وتُرفعُ سنويًّا.. أمَّا رفعُها اليوميُّ فقَدْ جاءَ في صَحيح مُسلمٍ مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[٢].

هذا هوَ الحظُّ والسعادةُ والخيرُ، أَنْ يُقالَ عنكَ على لسانِ المَلائِكةِ: يا ربِّ أَتَيْنا فلانًا وهو يُصلِّي وتركناهُ وهوَ يُصلِّي!، أتيناهُ وهوَ يُصلِّي صلاةَ العَصرِ في جماعةٍ، وتَرَكْناهُ وهوَ يُصلِّي الفجرَ في جماعةٍ. إذًا ترفعُ الأعمالُ في صلاةِ الفجرِ وفي صلاةِ العصرِ بشَكلٍ يَوميٍّ.

وتُعرضُ أُسبوعيًّا كما جاءَ مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِندَ التِّرمذيِّ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، رقم (٢٣٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٥)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس، رقم (٧٤٧).

وتُعرضُ سنَويًّا كما مرَّ في حَديثِ أُسامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَما قالَ: «وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».

رابِعًا: لأنَّه الشهرُ الَّذي يُصابُ فيهِ الناسُ بالغَفلةِ فيَغفُلونَ عنهُ، هكَذا أَخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَما قالَ: كَما جاءَ في حَديثِ أُسامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم: «ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ»، والعاقلُ هوَ الَّذي يَعمَلُ في حالِ غَفلةِ الناسِ، هكَذا أَرشَدَنا رسولُ اللهِ ﷺ، وبيَّنَ أنَّ المستثمِرَ الذكيَّ العاقلَ هوَ الَّذي يعملُ في حالِ غَفلةِ الناسِ.

والناسُ يَغفُلون في شَهرِ شَعبانَ، فأَرشَدَنا رَسولُ اللهِ ﷺ إلى العملِ في هذا الشهرِ، فقَدْ جاءَ في صَحيح مُسلمٍ وهوَ ﷺ يُربِّينا في حالِ غَفلةِ الناسِ، قالَ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ». قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[1].

قالَ المناوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ شارحُ الحديثِ في كِتابِه «فَيْض القَدير» قالَ: المفرِّدونَ: أي: المُنفرِدون المعتَزِلون للناسِ[2].

يَذكُرون اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هُم يُخالِطون الناسَ بأَجسادِهم لكِنَّهم يَعتزِلونهم بقُلوبِهم، فهُمْ في ذِكرٍ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ كما جاءَ عندَ التِّرمِذيِّ مِن حَديثِ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فيض القدير (٤/ ٩٢).

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»[١]، وجوفُ الليلِ الآخرُ حالُ غَفلةٍ، فالناسُ بينَ نائمٍ وبينَ لاهٍ لاعبٍ، وأنتَ في هَذهِ اللحظةِ مِنَ القليلِ، فكُنْ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذاكِرًا.

وقالَ ﷺ أيضًا: «العِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»[٢]. أي: في حالِ غَفلةِ الناسِ والفِتنِ وقيلَ وقالَ.

وانظُرْ إليهِ ﷺ وهوَ يقولُ حينَما يَدخلُ أحَدُنا السوقَ والناسُ في غَفلةٍ بينَ بائعٍ ومُشترٍ، فيَدخلُ هذا إلى السوقِ ويذكرُ اللهَ كَمْ لهُ منَ الأجرِ؟ فقَدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حَديثِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ، وبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ»[٣].

وذَلِكَ يكونُ على أثَرِ هذا الذِّكرِ الَّذي قالَهُ في غَفلةٍ مِنَ الناسِ. فنَتربَّى على العبادةِ حالَ الغفلةِ في شَهرِ شَعبانَ.

خامسًا: لأنَّ في شعبانَ فُرصةً لتَصفيةِ القلوبِ مِن أَدرانِ الشركِ والشَّحناءِ، فهَذهِ القلوبُ قد تَتلوَّثُ بشَوائبِ الشركِ والشَّحْناءِ والغلِّ والحِقدِ والحسَدِ، ففي

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٧٩)، من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج، رقم (٢٩٤٨)، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا دخل السوق، رقم (٣٤٢٨) و (٣٤٢٩).

شهرِ شَعبانَ نَفحةٌ مِن نَفحاتِ الرحمنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتَصفيةِ هذهِ القلوبِ، فقَدْ جاءَ في سُنَن ابنِ ماجَهْ أنَّ النبيَّ ﷺ -والحديثُ حسَّنَه الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قالَ: «إِنَّ اللهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ». هذه روايةُ ابنِ ماجَهْ[1].

وجاءَ عندَ الطبَرانيِّ قالَ: «فَيَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيُمْلِي لِلْكَافِرِينَ، وَيَدَعُ أَهْلَ الحِقْدِ بِحِقْدِهِمْ حَتَّى يَدَعُوهُ»[2].

فلا بدَّ ألَّا تَأتي ليلةُ النصفِ مِن شَعبانَ إلَّا وصَفِيَت هذهِ القلوبُ مِن أدرانِ الشركِ ومِن أدرانِ الشَّحناءِ والغِلِّ والحِقدِ، فالَّذي بينَه وبينَ أَخيهِ شَيءٌ مِنَ الشحناءِ فلْيُبادِرْ قبلَ ليلةِ النصفِ مِن شَعبانَ، فيُصفِّيَ هذا القلبَ ويُنقِّيَه حتَّى يَستفيدَ مِن أنوارِ شهرِ رمضانَ، وبركاتِه، ونَفحاتِه، ولْيُهيِّئْ نَفسَه في شهرِ شَعبانَ.

✖ ⌑ ✖

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان، رقم (١٣٩٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وانظر: السلسلة الصحيحة رقم (١١٤٤، ١٥٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢٤، رقم ٥٩٣)، والبيهقي في الشعب رقم (٣٥٥١)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢٩)

مَدرسةُ رمَضانَ

اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ كبيرًا، والحمدُ للهِ كثيرًا، وسُبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلًا.

اللهُ أكبَرُ كُلَّما غدَا نجمٌ وراحَ، اللهُ أكبَرُ كلَّما أشرقَ صبحٌ ولاحَ، اللهُ أكبَرُ كُلَّما ركعَ له الراكِعون وسجَدَ له الساجِدونَ، اللهُ أكبَرُ عددَ ما ذكرَهُ الذاكِرونَ الأبرارُ، وعددَ ما تعاقبَ الليلُ والنهارُ، وعددَ ما غرَّدَ طائرٌ وطارَ، اللهُ أكبَرُ القائِلُ في كِتابِهِ: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ اللهُ أكبَرُ القائِلُ في كِتابِهِ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

وصلَّى اللهُ وسلَّمَ علَى رسولِهِ القائِلِ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**»(١)، والقائِلِ: «**إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٧٤٩٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١/ ١٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام، رقم (٩٥٢)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب، رقم (٨٩٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقَد كُنا بالأمسِ نَدعو قائِلينَ: «اللَّهُمَّ سلِّمْنا شهرَ رمضانَ، وأعِنَّا فيهِ على الصيامِ والقيامِ» واليومَ نَدعو قائِلينَ: «اللَّهُمَّ تسلَّمْ مِنَّا شهرَ رمضانَ، واقبَلْ ما قدَّمْنا فيه مِن صالِحِ الأقوالِ والأعمالِ».

هنيئًا لِمَنْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، وهنيئًا لِمَن قامَه إيمانًا واحتسابًا، وهنيئًا لِمَن قرَأَ القرآنَ وختَمَه إيمانًا واحتسابًا، نَقولُها بِمِلءِ أفواهِنا للمَقبولينَ، الفائِزينَ، الناجِحينَ.

يُروَى عنِ الخليفةِ الراشدِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه كانَ يَقولُ ويُنادي في آخِرِ ليلةٍ مِن رمَضانَ: «يا ليتَ شِعري، مَنْ هذا المقبولُ؛ فنُهنِّيَهُ، ومَنْ هذا المحرومُ؛ فنُعزِّيَه، أيُّها المقبولُ هنيئًا لكَ، أيُّها المردودُ جَبَرَ اللهُ مُصيبتَكَ»[(١)].

ورمضانُ مَدرسةٌ اجتَمَعْنا فيها كلُّنا، واحتوانا فِناؤُها وسقفُها، مُعلِّمُنا فيها واحدٌ، ومَنهجُنا فيها واحدٌ، ومُقرراتُها واحدةٌ، بَيْدَ أنَّ نِسَبَ النجاحِ فيها مُختلفةٌ، فمِنَّا مَن تخرَّجَ في مدرسةِ رمضانَ بتَفوُّقٍ ونجاحٍ، ومنَّا مَن هوَ دونَ ذلكَ.

وتعلَّمْنا في مدرسةِ رمضانَ أنَّ التقوَى هيَ الغايةُ لكلِّ عِبادةٍ، فمَا مِن عبادةٍ شرعَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلَّا وأرادَ مِنها أن نَصلَ إلى مقامِ التَّقوَى، فإذا رأيتَ نفسَك تتعبَّدُ اللهَ بعبادةٍ لا تُوصلُك إلى التقوَى فاعلَمْ أنَّ تلكَ العبادةَ ناقِصةٌ، أو فيها خطَأٌ، أو أصابَها خللٌ.

التقوَى الَّتي هيَ الخوفُ مِنَ الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعةُ بالقليلِ،

---

(١) أخرجه المروزي في قيام الليل -كما في المختصر للمقريزي (ص: ٢١٤)- عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وانظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢١٠).

والاستعدادُ ليومِ الرحيلِ، والَّتي هيَ زادٌ للمؤمنِ ولباسٌ لهُ، أي: في ظاهرِهِ وباطنِهِ، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقالَ سُبحانَه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦].

إِذَا المَـرْءُ لَمْ يَلْـبَسْ ثِيَابًـا مِـنَ التُّقَـى ... تَقَلَّـبَ عُرْيَانًـا وَإِنْ كَـانَ كَاسِـيَا

وَخَـيْرُ خِصَـالِ المَـرْءِ طَاعَـةُ رَبِّـهِ ... وَلَا خَـيْرَ فِـيمَنْ كَـانَ لله عَاصِـيَا[1]

وتعلَّمْنا في مَدرسةِ رمَضانَ أنَّ الإنسانَ لا يَسعَدُ ولا يَسكُنُ ولا يَلتذُّ بهذهِ الحياةِ إلَّا إذا انقادَ لأمرِ اللهِ، واستَسلمَ لحُكمِ اللهِ، وتَدَيَّنَ بدِينِ اللهِ، وفي شهرِ رمَضانَ تكونُ الحياةُ جميلةً، تسكنُ الأرواحُ، وتَطمئِنُّ النفوسُ، ونَشعُر بلَذَّةِ الليلِ ولذةِ النهارِ؛ عِلمًا بأنَّنا نَكونُ في عبادةٍ مُرهقةٍ، طويلةٍ، تأخذُ منَّا أكثرَ مِن مُنتصفِ اليومِ، وفي الليلِ نَقومُ ونقرَأُ القُرآنَ ونَتصدَّقُ، ومعَ ذلكَ نَشعرُ براحةٍ وطُمأنينةٍ وسكينةٍ، والسببُ: أنَّ الإنسانَ لا يَسعدُ إلَّا إذا استسلَمَ لأمرِ اللهِ وحُكمِهِ وتديَّنَ بدِينِهِ.

قالَ اللهُ سُبحانَه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم: ٣٠].

وتعلَّمْنا في مَدرسةِ رمَضانَ أنَّ الحياةَ بغَيرِ هدَفٍ لا قيمةَ لَها، فهيَ حياةٌ

(١) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف (ص: ١١٢)، غير منسوب.

مُضطرِبةٌ، مُبعثَرةٌ، لا طعمَ لها ولا لذَّةَ، يهدفُ الصائمُ وهوَ ينظرُ إلى وقتِ السحورِ، ووقتِ الإفطارِ، وإلى نِهايةِ رمَضانَ، وإلى وقتِ صلاةِ التراويحِ، فَكيَّفَ وقتَهُ كلَّهُ نحوَ هذهِ الأهدافِ، أهدافٌ يَتخذُها العبدُ.

وأهدافُ العبدِ إمَّا أن تَكونَ سامِيةً ترفعُهُ إلى أعلَى المقاماتِ والقيَمِ، وإمَّا أهدافٌ سامَّةٌ تَهوِي بهِ إلى مَهاوِي الردَى، قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

يُريدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَّا أن نَعيشَ في هذهِ الحياةِ ونَحنُ نَنظرُ إلى الهدفِ الأسمَى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦].

وتعلَّمْنا في مَدرسةِ رمَضانَ أنَّ العملَ إذا لم يَكُنْ للهِ، فلا قيمةَ لهُ، وإن كانَ في زمنٍ فاضلٍ وفي مكانٍ فاضلٍ، وإن كانَ يُؤدَّى بكثرةٍ.

هكَذا تعلَّمْنا في رمَضانَ ونحنُ نَستمعُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ يغرسُ فينا هذا المنهجَ؛ إذ هوَ المعلمُ.

فقَد قالَ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»[(١)].

وقالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان، رقم (٣٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، رقم (٣٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح، رقم (٧٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ: «وَمَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»[١].

ليُربِّيَ هذه النفوسَ على أنَّها إذا أرادَتْ أن تَتحرَّكَ أو تَسكنَ فلْيَكُنْ ذلكَ لله وحدَه سُبحانَه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢- ٣].

فإذا كانَ الدِّينُ فيهِ شائِبةٌ منَ الشوائبِ فلا يَقبلُهُ اللهُ، كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديثِ القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[٢].

في مِثلِ هذا اليومِ، وفي مِثلِ هذهِ المناسبةِ (مِنِ اجتماعِ العيدِ والجمعةِ في يومٍ واحدٍ)، وقَفَ رسولُ اللهُ ﷺ على المنبَرِ، وقدِ اجتمَعَ لهُ في ذلكَ اليومِ عيدانِ: عيدُ الفِطرِ، وعيدُ الأسبوعِ، فقالَ ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا عِيدَانِ، فَمَنْ شَاءَ أَجزَأَهُ عَنِ الْجُمُعَةِ وَإِنَّا مُجَمِّعُونَ»[٣].

وإنَّ السُّنةَ ماضيةٌ أنَّ العبدَ يَختمُ العملَ الصالحَ بعملٍ صالحٍ.

وإنِّي أُوصِي بحضورِ الجمعةِ لِمَنْ حضرَ العيدَ، وإمامُنا وأُسوتُنا يَقولُ: «وَإِنَّا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان، رقم (٣٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان، رقم (٧٦٠/ ١٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب إذا وافق يوم الجمعة يوم عيد، رقم (١٠٧٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيما إذا اجتمع العيدان في يوم، رقم (١٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُجَمِّعُونَ»، فقَدْ جمَعَ ﷺ بينَ الحُسنَيَيْن: جمعَ بينَ صلاةِ العيدِ، وصلاةِ الجمعةِ، والخيرُ كلُّهُ في اتِّباعِهِ ﷺ، وإنَّمَا رخَّصَ ﷺ في هذا الحديثِ لِمَن بَعُدَت قُراهُم ومُدنُهم وشقَّ علَيْهم أن يَعودوا بعدَ أن يُصلُّوا إلى تِلكَ القُرى، فقالَ: «فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ عَنِ الْجُمُعَةِ». فلا تُفوِّتْ على نفسِكَ هذه الفرصةَ، أن تَجتمعَ لكَ الخيراتُ في يومٍ واحدٍ، يومِ عيدٍ ويومِ جُمعةٍ.

ثُمَّ أُوصِي أن نَفرحَ بالعيدِ فهذا عيدُنا الَّذي يَنبغي أن نَفرحَ فيهِ، وأن نُظهِرَ هَذا الفرحَ في أنفسِنا، ومعَ أقربِ الناسِ إلَيْنا مِن آبائِنا وأمهاتِنا وأزواجِنا وأولادِنا، فليسَ هناكَ اليومَ مكانٌ للكآبةِ والحُزنِ والتحسُّرِ والضيقِ والخصامِ، هذا يومٌ مباركٌ؛ فلْنَفرَحْ فيهِ ولْتَتَصافَ القُلوبُ قبلَ أن تَتصافحَ الأكُفُّ، ومَن كانَ بينَك وبينَهُ شيءٌ مِنَ الدُّنيا فتقدَّمْ إليهِ وصافِحْهُ بقَلبِك قبلَ أن تُعانِقْهُ، وقبلَ أن تُصافِحْهُ بكَفِّك، إنَّه يومُ عيدٍ؛ فلْنَفرَحْ فيهِ ولنُظهِرْ هذا الفرحَ.

✖ ⌑ ✖

(٣٠)

الوصفاتُ السبعُ للثباتِ على الدِّينِ

إنَّ التديُّنَ بدِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى والهِدايةَ نِعمةٌ مِن نِعَمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومِنَّةٌ مِن أجلِّ المِنَنِ، فقَدِ امتنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على عبادِهِ بنِعمةِ الدِّينِ، فقالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

والثباتُ على هَذا الدِّينِ نِعمةٌ أجلُّ ومنةٌ أعظمُ، فالمُثبِّتُ على الدِّينِ هوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائِلُ في كِتابِهِ الكَريمِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٧٤].

وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم: ٢٧].

والثباتُ على الدِّينِ وَصيةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لعبادِهِ حينَما قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وهوَ وَصيةُ الأنبياءِ لأَبنائِهم كما قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

وكم نَحنُ في حاجةٍ أن نَعيَ هذهِ المَسألةَ؟! وهيَ ضَرورةُ الالتِفاتِ إلى أهمِّيةِ الثباتِ على الدِّينِ، خاصةً إذا علِمْنا أنَّ العبدَ قد يَعيشُ الهِدايةَ والتَّديُّنَ، ولكِنَّه في آخِرِ الطريقِ تَزلُّ قدَمُه.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ والحديثُ في صَحيح مُسلمٍ: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَينَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»[(١)].

وقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

فكانَ ثابتًا عَلى الدِّينِ والهدايةِ، لكِنَّه لم يَعِ هذهِ المسألةَ، ولم يَلتفِتْ إلى هذهِ العِبادةِ وهيَ عِبادةُ الثَّباتِ على الدِّينِ. والعبدُ في دِينهِ وتَدَيُّنِهِ، يتعرضُ إلى فِتنتَيْن عَظيمتَيْن: فِتنةٍ في الخارجِ، وفِتنةٍ في الداخِلِ.

أمَّا فِتنةُ الخارجِ فهيَ فِتنةُ الحياةِ الدُّنْيا بزِينتِها وزُخرُفِها، وجاهِها وسُلطانِها، وأَموالِها وحَسبِها، وما فيها منَ الخيراتِ، قد تَفتِنُ العبدَ عَن دِينهِ.

وفِتنةُ الداخِلِ: هيَ فِتنةُ تَقلُّبِ القلبِ.

وكِلا الفِتْنَتَيْنِ أخبَرَ النبيُّ ﷺ عَنْهما:

أمَّا عَن فِتنةِ الخارجِ فقَدْ قالَ ﷺ، يُخاطِبُ صحابتَهُ الكرامَ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ أَوَمِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»[(٢)].

وجاءَ في سُننِ التِّرمذيِّ مِن حَديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، رقم (٤٠١٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ»[(١)].

هيَ فِتنةٌ عظيمةٌ، فمَثَلُك في صَبرِكَ على دِينِك مَثَلُ القابضِ على الجمرِ.

وفِتنةُ الداخلِ وهيَ تَقلُّبُ القلبِ، والقلبُ بينَ رَبطٍ وتَقلُّبٍ، فقلوبٌ يُقلِّبُها اللهُ، وقلوبٌ يَربطُ اللهُ علَيْها، وكِلا القَلبَيْنِ أخبَرَ عَنهُما اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وفي الوقتِ نفسِهِ يَربطُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على قلوبِ بعضِ عبادِهِ، فقالَ في سُورةِ الأنفالِ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقالَ سُبحانَه في سُورةِ الكهفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٣ - ١٤].

وقالَ سُبحانَه عَن أُمِّ مُوسَى في سُورةِ القصصِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص: ١٠].

وفي سُنَنِ التِّرمِذيِّ، جاءَ أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ، فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ وبِما جِئتَ بِهِ، فهَلْ تَخافُ علَيْنا؟ قالَ: «نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[(٢)].

فهَلْ يأمنُ الإنسانُ على نفسِهِ أنَّه اليومَ يُصلِّي، ولعلَّهُ غدًا يَكرهُ الصلاةَ، فعلَيْه

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، رقم (٢٢٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٤).

أن يَأخُذَ بوَصفاتِ الثباتِ عَلى الدِّينِ، ولا بُدَّ أن يَعضَّ علَيْها بالنواجِذِ، ويُصبِحَ ويُمسِيَ وهو يَأخذُ هذهِ الوصفاتِ، فإذا تَخلَّى عَن أخذِها تَعرَّضَ للفِتنةِ.

ووصفاتُ الثباتِ عَلى الدِّينِ هيَ وَصفاتٌ لم يَكتُبْها طبيبٌ، ولم يُقيِّدْها حَكيمٌ، بَلْ أمَرَ بها الربُّ الكريمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونطَقَ بها الصادقُ المصدوقُ ﷺ، وهيَ:

الوَصفةُ الأُولَى: أن تَعلمَ أنَّك في حاجةٍ إلى الثباتِ، وتَدبَّرْ كيفَ نَصنعُ في يَومِنا، صباحِنا ومسائِنا، نقولُ أكثرَ مِن سَبعةَ عشرَ مرةً: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦]، نحنُ في طريقِ الهدايةِ، وعلى صِراطِه المستقيمِ، ومعَ ذلكَ نَقولُ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ لئلَّا تَزلَّ هذهِ القدَمُ.

قالَ ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتابِه «طريقُ الهِجرتَينِ»: «إنَّ العبدَ إذا علِمَ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو مُقلِّبُ القلوبِ، وأنَّه يَحولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلَّ يومٍ هوَ في شأنٍ، يفعلُ ما يَشاءُ ويَحكمُ ما يُريدُ، يَهدِي مَن يَشاءُ ويُضِلُّ مَن يَشاءُ، يَرفعُ مَن يَشاءُ ويَخفِضُ مَن يشاءُ، فلا يأمنُهُ أن يُقلِّبَ قلبَه ويَحولَ بينَهُ وبينَهُ ويُزيغَهُ بعدَ إقامتِهِ»[(١)].

الوَصفةُ الثانيةُ: الإقبالُ بكُلِّيَّتِك على القرآنِ، ليسَ في شَهرِ رمَضانَ أو شَعبانَ، وإنَّما تَكونُ حياتُك كلُّها مُرتبطةً بالقرآنِ، فهذهِ أعظمُ وَصفةٍ للثباتِ على الدِّينِ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ النحلِ: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢ ﴾ [النحل: ١٠٢].

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٢٨٨).

وقَدْ أنزلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القرآنَ للتَّثبيتِ على الدِّينِ، فقالَ سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ وقالَ سُبحانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وجاءَ في صَحيح ابنِ حِبَّانَ، مِن حديثِ أَبي شُريحٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إِنَّ هَذَا القُرْآنَ سَبَبٌ** -أَي: حبلٌ- **طَرَفُهُ بِيَدِ الله وَطَرَفُهُ بِأَيدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعدَهُ أَبَدًا**»[(١)].

الوَصفةُ الثالثةُ: إذا علِمْت أنَّ المُثبِّتَ على هذا الدِّينِ هوَ اللهُ، فقُلْ: يا ربِّ، ثبِّتْ قَلبي على دِينكَ. وردِّدْ هذا مِرارًا، فقَدْ قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في دعاءِ الصالِحِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨].

وقالَ سُبحانَهُ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وقَدْ جاءَ في سُنَن ابنِ ماجَهْ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ كثيرًا ما يَدْعو يقولُ: «**اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلبِي عَلَى دِينِكَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٠٦٢٨)، وابن حبان في صحيحه رقم (١٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ١٨٨، رقم ٤٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويقولُ ﷺ أيضًا: «يَا مُثَبِّتَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ وَعَلَى دِينِكَ»[(١)].

وهوَ رسولُ اللهِ المؤيَّدُ بالرسالةِ والنبوَّةِ والوحيِ، فكَمْ مرةٍ نقولُها نحنُ في اليومِ؟!

الوصفةُ الرابعةُ: الإقبالُ على الطاعةِ، بينَ فرضٍ ونافلةٍ، قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

الوَصفةُ الخامِسةُ: اقرَأْ في سِيَرِ الأنبياءِ والصحابةِ والتابعينَ والصالِحينَ، كيفَ تَعرَّضوا للفِتنِ؟ واقرَأْ في سِيَرِ الأئمةِ الأربعةِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ أَبي حَنيفةَ ومالكٍ والشافعيِّ وابنِ حَنبلٍ، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

الوصفةُ السادِسةُ: انصُرْ دِينَ اللهِ بقَدرِ طاقتِك وجهدِك، فالنتيجةُ أنَّك تَثبُتُ على الدينِ، أخبَرَنا بذلكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ حيثُ قالَ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]، أي: إن تَنصُروا دِينَه.

الوصفةُ السابعةُ: تَفاءَلْ بأنَّ العاقبةَ لِهذا الدِّينِ، وكُنْ على يقينٍ بذلكَ، فإنَّ الَّذي يَعيشُ مُتشائمًا ومَهزومًا منَ الداخلِ يُخشَى عليهِ الانتكاسُ، والانقلابُ، أمَّا الَّذي يحملُ في نفسِهِ يقينًا بأنَّ العاقبةَ لهذا الدِّينِ فإنَّه قد أخَذَ بأعظمِ وصفاتِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢)، وابن ماجه: مقدمة السنن، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٩)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

الثباتِ على الدِّينِ؛ لذا يَقولُ رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»[١].

فهذا الَّذي يَرَى المستقبلَ مُظلِمًا، ويَرَى أنَّ الإسلامَ مُستقبَلٌ ضعيفٌ؛ هذا الهلاكُ يَبدأُ بهِ فهوَ أهلَكُهُم، والَّذي يَقرأُ في سيرةِ النبيِّ ﷺ ويَرَى ما تعرَّضَ لهُ هوَ وصحابتهُ الكرامُ مِنَ الفتنِ والزلازلِ والمِحنِ؛ يعرفُ أنَّه ﷺ كانَ في وقتِها يَحملُ قلبًا مُشرقًا متفائِلًا.

ولكَ أن تَتأمَّلَ ما حدثَ للنبيِّ ﷺ وصحابتِهِ الكرامِ في غَزوةِ الأحزابِ، إذ تَكالَبَتْ عليهِم مِللُ الكُفرِ مِن كلِّ جانبٍ، وجاءَ المشرِكونَ في عَشَرةِ آلافِ مُقاتِلٍ، أعدادُهم تفوقُ سكَّانَ المدينةِ كلِّها برجالِها ونسائِها وصغارِها وكِبارِها، فقامَ الصحابةُ يَحفرونَ الخندقَ، فاعترَضَت لهُم صخرةٌ كبيرةٌ، تَكسَّرَت معاوِلُهم علَيْها، فجاءَ النبيُّ ﷺ وهو يَحملُ هذهِ النفسَ المطمئنةَ، الموقنةَ بأنَّ العِزةَ لِهذا الدِّينِ، فضربَ هذه الصخرةَ فانكَسَرَ ثلثُها، فقالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، واللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ السَّاعَةَ»، ثُم ضرَبَها الثانيةَ فانكسَرَ ثلُثُها الثاني؛ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قَصْرَ المَدَائِنِ الأَبْيَضَ»، ثُمَّ ضربَها الثالثةَ فهَدَّها كلَّها، ثُمَّ قالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَّاعَةَ»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن قول هلك الناس، رقم (٢٦٢٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣)، والنسائي في الكبرى رقم (٨٨٠٧)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إنَّها النفسُ المتفائِلةُ؛ لذا قالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورةِ الأحزابِ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢- ٢٣].

هُم ثابِتون بِهذا اليقينِ الَّذي يَحمِلونَه في نُفوسِهم.

✖ ⌑ ✖

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مُقدمةُ المجمُوعةِ السَّادسةِ ٥
مُقدمةُ المجمُوعةِ الأُولى ٦
١- احْـذَروا الفِتنَ ٩
حالُ المؤمنِ معَ الفتنِ ١٠
حقيقةُ الفِتنِ تَكمنُ في أربعةِ صُورٍ: ١١
الصورةُ الأُولى: الفِتنة في بِدايتِها تَتزينُ، وفي آخرِها تَقبُحُ ١١
الصورةُ الثانيةُ: عُقول الرجالِ تَعرجُ أثناءَ الفِتنِ ١٢
الصورةُ الثالِثةُ: إذا حصَلَتِ الفتنُ سادَ المشهدَ السُّفهاءُ ١٣
الصورةُ الرابعةُ: الفِتن تُدفعُ بأمورٍ: ١٤
الأمرُ الأوَّل: إماتةُ الإشاعةِ في مهدِها ١٤
الأمرُ الثانِي: الالتفافُ حولَ ولاةِ الأمرِ والعلماءِ الرَّبانيِّينَ ١٤
الأمرُ الثالثُ: الدُّعاءُ ١٤
٢- مَحبةُ الله هيَ الحبُّ الكبيرُ ١٥
مَنزلة المحبَّة مِن أعظمِ المنازِلِ في الدِّينِ ١٥
علاماتُ محبَّة الله للعَبْد: ١٦
العلامةُ الأُولى: إذا أحبَّ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عبدًا حماهُ الدُّنيا ١٦

العلامةُ الثانيةُ: وقوعُ البلاءِ ١٧
العَلامةُ الثالِثةُ: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُدخلُ عليهِ الرفقَ ١٨
وسائلُ الوُصول إلَى محبَّة الله: ١٩
الوَسيلةُ الأُولى: الإكثارُ مِنَ النَّوافلِ ١٩
الوَسيلةُ الثانِيةُ: الصِّدق والأمانةُ وحُسن الجِوار ١٩
٣- أعمالٌ يُحبُّها اللهُ تَعالى ٢١
ثلاثُ محبوباتٍ يُحبُّها الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ٢٢
الأُولى: حُسنُ الخُلقِ ٢٢
الثَّانية: إتقانُ العملِ ٢٤
الثَّالثة: إدخالُ السرورِ على الآخَرين ٢٦
٤- قبلَ أَنْ تَستخدِمَها.. تَذكَّرْ! ٢٨
وسائلُ التواصلِ بين الخير والشر ٢٨
أمورٌ يجبُ تذكُّرها قبلَ استخدامِ وسائلِ التَّواصُل: ٢٩
الأمرُ الأولُ: أنَّك مَسؤولٌ عنِ استخدامِكَ هَذا ٢٩
الأمرُ الثاني: أنَّ اللهَ مُطَّلعٌ عليكَ ٣٠
الأمرُ الثالثُ: انظُرْ في نِيتِك ٣٢
الأمرُ الرابعُ: أَلَّا يَكونَ في استخدامِكَ إيذاءٌ لأحدٍ ٣٣
٥- التَّسامُحُ ٣٥
سَماحةُ الإسلامِ مَنهجٌ ربَّانيٌّ ٣٥

نماذجُ مِن التَّسامُح في سِيرةِ النبيِّ ﷺ: ٣٧
النَّموذجُ الأوَّلُ: تسامحه ﷺ معَ أهلِ بيتِه ٣٧
النَّموذجُ الثانِي: تَسامحُه ﷺ معَ أولادِه ٣٨
النَّموذجُ الثالِثُ: تَسامُحُه ﷺ معَ أحفادِه ٣٨
النَّموذجُ الرابعُ: تَسامُحُه ﷺ معَ خَدَمِه في بيتِه ٣٩
النَّموذجُ الخامِسُ: تَسامُحُه ﷺ معَ غيرِه مِن أَصحابِ الدِّياناتِ ٣٩
النَّموذجُ السادسُ: تَسامُحُه ﷺ معَ المُذنِبينَ ٤٠
٦- الرُّجولةُ ٤١
الرُّجولةُ قيمةٌ أخلاقيةٌ تنهضُ بِالمُجتمعاتِ والأممِ ٤١
أُمنيَّة الفاروقِ عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٤٢
رُجولة محمَّد بن واسِع ٤٣
صِفات الرِّجال في الإسلام: ٤٣
الصفةُ الأُولى: الطُّهرُ والنَّقاءُ ٤٣
الصفةُ الثانِيةُ: قُلوبهم تَهفو إلى المساجدِ للصلاةِ ٤٤
الصِّفةُ الثالِثةُ: يَخافونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ٤٥
الصفةُ الرابعةُ: الصدق والوفاء بالوعد ٤٥
٧- ميادينُ الصَّبرِ (١) ٤٧
الصبرُ سِلاحُ المؤمنِ ٤٧
الصبرُ قوةٌ وعَزيمةٌ وانتصارٌ ٤٨

بالصبرِ تَتحقَّقُ الإعانةُ ويَحصلُ التأييدُ ٤٨
مِن مَيادينِ الصبرِ: ٤٩
١ - الصبرُ على الضرَّاءِ ٤٩
٢ - الصبر عندَ السرَّاءِ ٥١
٨- ميادينُ الصَّبرِ (٢) ٥٣
٣- من ميادين الصبرِ: الصبر عَلى العِبادةِ ٥٣
الصبرُ قبلَ العِبادةِ ٥٣
الصبرُ أثناءَ العبادةِ ٥٤
الصبرُ بعدَ الفراغِ مِنَ العبادةِ ٥٥
٤- مِن مَيادينِ الصبرِ: الصبرُ في التعامُلِ معَ الناسِ ٥٦
٥- مِن ميادينِ الصبرِ: الصبرُ في الحياةِ الزَّوجيةِ ٥٧
٦- مِن مَيادينِ الصبرِ: الصبرُ في تَربيةِ الأبناءِ ٥٧
٧- مِن مَيادينِ الصبرِ: الصبرُ في تحقيقِ النجاحِ ٥٨
٨- مِن مَيادينِ الصبرِ: الصبرُ أيَّامَ الفِتنِ ٥٩
٩- ميادينُ الصَّبرِ (٣) ٦١
الوَسائلُ المُعِينةُ عَلى الصبرِ: ٦١
الوَسيلةُ الأُولى: العِلمُ بحقيقةِ الدُّنْيا ٦١
الوسيلةُ الثانيةُ: العِلمُ بأنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ ٦٣
الوسيلةُ الثالِثةُ: إدامةُ النظرِ في سِيَرِ مَن صبَرَ مِنَ الرسلِ والأنبياءِ ٦٤

الوسيلةُ الرابِعةُ: التصبُّرُ ٦٥
الوَسيلةُ الخامِسةُ: اليقينُ بحصولِ الأجرِ ٦٦
١٠ - كيفَ تَمْحو ذَنبَكَ؟ ٦٨
مِن وسائلِ مَحْو الذُّنوب: ٦٩
الوسيلةُ الأُولى: أن تَدعوَ اللهَ أن يَغفرَ ذَنبَك ٦٩
الوسيلةُ الثانِيةُ: المحافظة على الصلَواتِ الخمسِ ٧١
الوَسيلةُ الثالِثةُ: برُّ الوالدَيْن وصِلة الرَّحِم ٧٢
الوَسيلةُ الرابِعةُ: الصبرُ عَلى المصائبِ، والآلامُ ٧٣
١١ - المُعينُ عَلى سَلامةِ القَلبِ ٧٤
مَنْ سَلِمَ قلبُه في الدُّنْيا سَلِمَ له لقاؤُه برَبِّه يومَ القيامةِ ٧٤
مِن أَعظمِ ما لوَّثَ القُلوبَ: ٧٥
المُلوِّثُ الأولُ: الاستِسلامُ للشَّيْطانِ ٧٥
الملوِّثُ الثاني: الحسدُ ٧٦
المُلوِّثُ الثالثُ: حبُّ الأثَرَةِ، وإقصاءِ الآخَرينَ ٧٧
كيفَ نُطهِّرُ هَذهِ القُلوبَ؟ ٧٨
الأمرُ الأولُ: لا تَغفَلْ عنِ القرآنِ ٧٨
الأمرُ الثانِي: أن نَدعُو اللهَ أن يُسلِّمَ لَنا قُلوبَنا ٧٨
الأمرُ الثالثُ: أَعرِضْ عَن كلِّ ما تَسمعُ مِمَّا يُؤذيكَ ٧٩

١٢ - المُكرَّمونَ في الآخِرةِ ٨٠
مِن أصنافِ المُكرَّمين في الآخِرةِ: ٨٠
الصِّنف الأوَّل: أهل «لا إلهَ إلَّا اللهُ» ٨٠
الصِّنف الثَّاني: أهلُ القرآنِ ٨٣
الصِّنف الثَّالِث: أهلُ العَفوِ ٨٤
الصِّنف الرَّابع: المُتواضِعونَ ٨٤
١٣ - صدَقاتٌ مِن نَوعٍ آخَرَ ٨٧
أبوابٌ مِنَ الصدَقاتِ مِن نوعٍ آخرَ: ٨٨
البابُ الأوَّلُ: الزراعةُ ٨٨
البابُ الثاني: سَقيُ الماءِ ٨٩
البابُ الثالثُ: رَكعَتا الضُّحَى ٩٠
النوعُ الرابعُ: الكلِمةُ الطيِّبةُ ٩٠
البابُ الخامِسُ: إلقاءُ السَّلامِ ٩١
البابُ السادِسُ: التبسُّمُ ٩١
البابُ السابعُ: أن تَكفَّ شرَّك عنِ الناسِ ٩١
البابُ الثامنُ: الذِّكرُ ٩٢
١٤ - أدَبُ التاجِرِ ٩٤
فَضْل السَّعي في طلبِ الرِّزقِ ٩٤
فُشُو التِّجارة علامةٌ مِن عَلاماتِ الساعةِ ٩٥

مِن آدابِ التجارةِ: ٩٦
الأدبُ الأوَّلُ: الصدق في القول ٩٦
الأدبُ الثاني: سلامةُ الصدرِ للمُشتري ٩٧
الأدبُ الثالثُ: السماحةُ ٩٨
الأدبُ الرابعُ: الواقعيةُ في التِّجارةِ والطَّلبِ ٩٩
الأدبُ الخامسُ: تطهيرُ المالِ ٩٩
الأدبُ السادسُ: عَدم الغَفْلة عنِ الآخرةِ ١٠٠
١٥ - فضائلُ أَذكارِ الصَّلاةِ ١٠١
ذِكرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هي التجارةُ العُظمَى ١٠١
ما شُرِعَت عِبادة إلَّا لإقامةِ ذِكرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٠٢
من فضائل أذكار الصلاةِ: ١٠٢
الأولُ: دعاء دخول المسجد ١٠٢
الثاني: دعاء الاستفتاح ١٠٣
الثالثُ: الاستعاذةُ باللهِ أثناءَ الصلاةِ ١٠٣
الرابعُ: التأمين خلف الإمام ١٠٤
الخامسُ: الرفعُ مِنَ الركوعِ ١٠٤
السادسُ: ما يُقالُ بعدَ الصلاةِ ١٠٤
١٦ - إعاقةُ قَلبٍ ١٠٧
خُطورة مرَض القُلوب ١٠٧

الكسلُ عنِ الطاعةِ من أبرز مَظاهرِ إعاقةِ القلوبِ ١٠٨
أسباب إعاقة القلب: ١٠٩
السببُ الأوَّلُ: ارتِكابُ الذنوبِ والمعاصِي ١٠٩
السببُ الثاني: الجهلُ بثوابِ الأعمالِ ١١٠
السببُ الثالثُ: الغَفْلةُ عَن ذِكرِ الموتِ ١١٣
١٧ - إفاقةُ قَلبٍ ١١٤
القلوبُ بينَ إفاقةٍ وإعاقةٍ ١١٤
علاماتُ إفاقةِ القلبِ: ١١٥
العَلامةُ الأُولى: أنَّ القلبَ يُقبِلُ على الطاعةِ قبلَ البدنِ ١١٥
العلامةُ الثانيةُ: السَّعيُ الحثيثُ في تَنظيفِ القلبِ ١١٦
العلامةُ الثالِثةُ: مداومة السؤال بصلاح القلب ١١٧
العلامةُ الرابعةُ: الاستئناس بذِكرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ١١٩
١٨ - اللَّهُمَّ بارِكْ لَنا في نِعَمِنا ١٢١
فَضْل البَرَكة في المنَحِ والنِّعَمِ ١٢١
مِن معاني البَرَكة ١٢٢
كيفيةُ تَحصيل البرَكةِ؟ ١٢٢
الأمرُ الأوَّلُ: لا تَتنزَّلُ البركةُ إلَّا على مَن حقَّقَ التقوَى والإيمانَ ١٢٢
الأمرُ الثاني: كُنْ شاكرًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ١٢٤
الأمرُ الثالثُ: أكلُ الحلالِ ١٢٥

١٩- تعظيمُ الله تَعالى ١٢٧
تعظيمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو رُوحُ العبادةِ ١٢٧
السَّبيلُ إلى تعظيمِ الله في ثلاث طرق: ١٢٨
الأوَّلُ: تعرَّفْ على اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ١٢٨
الثاني: اطَّرِحْ بينَ يدَيْه واسأَلْه حوائِجَك ١٣٠
الثالثُ: عظِّمْ شرعَه ١٣١
٢٠- تَعظيمُ الكائِناتِ لربِّ البرِيَّاتِ ١٣٤
كلُّ مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ يُعظِّمُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ١٣٤
نماذجُ منَ المخلوقاتِ الَّتِي تُعظِّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ١٣٥
النموذجُ الأولُ: الشجرُ، وكلُّ نبتٍ يَنبتُ على الأرضِ ١٣٥
النموذجُ الثاني: الدوابُّ ١٣٦
النموذجُ الثالثُ: الجبالُ ١٣٨
الملائكةُ وتعظيمها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ١٣٨
٢١- لسْتَ وحدَكَ، فالمَلَكُ معَكَ ١٤٠
الشُّعور بالوَحْدة ومعالجةُ الشَّرع الحَكيم لِذلِكَ ١٤٠
مشاهدُ الملائكة معَكَ: ١٤١
المشهدُ الأوَّلُ: الملائكةُ تَحرسُك ١٤١
المشهدُ الثاني: المَلَكُ يَأتي ليَنامَ بقُربِك ١٤٢
المشهدُ الثالثُ: الملكُ يَدعو لكَ وأنتَ نائمٌ ١٤٢

المشهدُ الرابعُ: الملائكةُ تُؤمِّن على دعائك ١٤٢
المَشهدُ الخامِسُ: المَلَكُ معك في مَسيرِك إذا ذكرت الله ١٤٣
المَشهدُ السادسُ: المَلَكُ معَكَ في صلاتِك ١٤٣
المشهدُ السابعُ: المَلَكُ معَكَ وأنتَ تُنفِقُ وتُعطي ١٤٤
المشهدُ الثامِنُ: المَلَكُ معَكَ عندما تَعودُ مَريضًا ١٤٤
المَشهدُ التاسعُ: المَلَكُ معَكَ أيُّها التائبُ ١٤٥
المَشهدُ العاشرُ: لستَ وحدَك وأنتَ تُصلِّي على النبيِّ ﷺ ١٤٥
٢٢- تَعزيةٌ ١٤٧
مُصيبة الموتِ ١٤٧
وَصايا لكلِّ مُصابٍ: ١٤٧
الوصيةُ الأُولى: تَذكَّرْ ما أعَدَّه اللهُ لكَ مِنَ الأجرِ والثوابِ ١٤٧
الوصيَّةُ الثانيةُ: أن تَستسلمَ لِما كُتِبَ في المقاديرِ ١٤٩
الوصيَّةُ الثالِثةُ: دعاءُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ ..» ١٥١
٢٣- تَقدَّمْ ولا تَتأخَّرْ ١٥٢
الناسُ صِنفانِ؛ صِنفٌ أبصرَ الخيرَ فتَقدَّمَ إليهِ، وصِنفٌ تَأخرَ عَنه ١٥٢
ليسَ ثَمَّ أمامَ العبدِ وقوفٌ، فإمَّا أن يَتقدَّمَ، وإمَّا أن يَتأخَّرَ ١٥٢
أيُّ تَقدُّمٍ يَتقدَّمُه العبدُ أو تأخَّرَ يَجدُ نتيجتَه يومَ القيامةِ ١٥٣
الإنسانُ مُكلَّفٌ باختيارِ ما يُريدُ ١٥٣
فضلُ التقدُّمِ والسعي نحوَ الأمامِ ١٥٤

الصحابةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مُبرَّزونَ في كلِّ مَيدانٍ ١٥٦
عوائقُ التقدُّمِ ١٥٧
٢٤- الانفِلاتُ اللَّفْظيُّ ١٥٨
خُطورة الانفلاتِ اللَّفظي ١٥٨
مِن أَبرزِ مَظاهرِ هَذا الانفلاتِ اللَّفْظيِّ: ١٦٠
الحُكم على الآخَرينَ بالكُفرِ أوِ الإيمانِ ١٦٠
الرميُ بالبُهتانِ، والرميُ بالزورِ، واتِّهامُ الآخَرينَ ١٦١
السِّبابُ والشتمُ على مَواقعِ التواصلِ ١٦٢
٢٥- خُلقُ السترِ ١٦٤
خُلقُ السترِ خُلقٌ يُحبُّه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ١٦٤
خُلقُ السِّترِ هو خُلقُ الأنبياءِ والصالِحِينَ ١٦٥
التَّحذير مِن إشاعةِ الفواحِشِ ١٦٥
التَّرغيب في السَّترِ على النَّفسِ، والسترِ على الآخَرينَ ١٦٧
يَا هَزَّالُ، لَوْ سَتَرْتَهُ بِرِدَائِكَ ١٦٩
أَأفضَحُه بعدَ أن جاءَني تائبًا ١٧١
٢٦- لأَجْلِ هَذا أُصلِّي ١٧٢
أَهمِّيةُ وعِظَمُ أمرِ الصَّلاةِ ١٧٢
الصَّلاةُ أهمُّ أركانِ الدِّينِ بعدَ الشهادَتينِ ١٧٣
الصَّلاةُ المعبَرُ إلى الفلاحِ، والبوابةُ إلى النجاحِ ١٧٣

الصَّلاةُ هي المُنجيةُ ١٧٤
الصَّلاةُ حدٌّ فاصلٌ بينَ الإيمانِ والكُفرِ ١٧٥
الصَّلاةُ نورٌ ١٧٦
الصَّلاةُ مَتجرُ الحسَناتِ ١٧٧
٢٧- أَفيقوا أيُّها الشامِتونَ ١٧٩
الشَّماتةُ صِفةٌ مَذمومةٌ ١٧٩
رسائلُ إلى الشَّامِتين: ١٧٩
الرِّسالةُ الأُولى: أنَّ الشامِتَ قدِ امتَلَأَ قلبُه بالعداوةِ والحسدِ ١٧٩
الرِّسالةُ الثانيةُ: الشامِت الَّذي يَشمتُ بأخيهِ، فإنَّه يُشمتُ بذلكَ أعداءَهُ..... ١٨٠
الرِّسالةُ الثالثةُ: الشامتُ بغَيرِه متشبِّهٌ بالمُنافِقينَ ١٨١
الرِّسالةُ الرابعةُ: الشماتةُ مِن أشدِّ أنواعِ الأذَى للمُؤمِنِ ١٨٢
الرِّسالةُ الخامِسةُ، الشامت بغَيرِه تَعودُ عليهِ شَماتتُه ١٨٢
الرِّسالةُ السادِسةُ: الواجبُ في حقِّ العبدِ إذا رأَى مُبتلًى ألَّا يَشمتَ ١٨٤
٢٨- شَهرُ شَعبانَ ١٨٥
مِن أسبابِ الاهتمام بشهر شَعبانَ: ١٨٥
أولًا: لأنَّه مُقدِّمةٌ لرمَضانَ ١٨٥
ثانيًا: لأنَّه شَهرٌ يُعَدُّ مِن مواسمِ الخيراتِ ١٨٦
ثالثًا: لأنَّه شهرٌ تُرفعُ فيه الأعمالُ إلى اللهِ ١٨٦
رابِعًا: لأنَّه الشهرُ الَّذي يُصابُ فيهِ الناسُ بالغَفلةِ ١٨٨
خامسًا: لأنَّ في شعبانَ فُرصةً لتَصفيةِ القلوبِ ١٨٩

٢٩- مَدرسةُ رمَضانَ ١٩١
هنيئًا لِمَنْ صامَ رمضانَ وقامَه إيمانًا واحتسابًا ١٩٢
التقوَى هيَ الغايةُ لكلِّ عِبادةٍ ١٩٢
الاستِسْلام والانقِياد لأمرِ اللهِ مصدرٌ لسَعادةِ الإنسانِ ١٩٣
الحياةُ بغَيرِ هدَفٍ لا قيمةَ لَها ١٩٣
اجتماعُ العِيدِ والجُمُعةِ فِي يومٍ واحدٍ ١٩٥
إظهارُ الفَرَح بالعِيدِ ١٩٦
٣٠- الوَصفاتُ السبعُ للثباتِ على الدِّينِ ١٩٧
نعمةُ الثَّباتِ على الدِّينِ ١٩٧
العبدُ في دِينهِ وتَدَيُّنِهِ، يتعرضُ إلى فِتنتَيْن عَظيمتَيْن ١٩٨
وصفاتُ الثباتِ عَلى الدِّينِ: ٢٠٠
الوَصفةُ الأُولَى: أن تَعلمَ أنَّك في حاجةٍ إلى الثباتِ ٢٠٠
الوَصفةُ الثانيةُ: الإقبالُ بكُلِّيَّتِك على القرآنِ ٢٠٠
الوَصفةُ الثالثةُ: الدعاءُ بالثَّبات على الدِّينِ ٢٠١
الوصفةُ الرابعةُ: الإقبالُ على الطاعةِ ٢٠٢
الوَصفةُ الخامِسةُ: اقرَأْ في سِيَرِ الأنبياءِ والصحابةِ والتابِعينَ ٢٠٢
الوصفةُ السادِسةُ: انصُرْ دِينَ اللهِ بقَدرِ طاقتِك ٢٠٢
الوصفةُ السابعةُ: تَفاءَلْ بأنَّ العاقبةَ لِهذا الدِّينِ ٢٠٢
فِهرسُ المَوضُوعاتِ ٢٠٥